(الكتاب السابع)

الفصل الأول

ويتناول الأوامر التى أصدرها جلالة الملك من أجل تعزيز جيش ماركيز بلش، وكيف أمره بإخضاع البشرات.

كان جيش ماركيز بلش لا يزال معسكرًا فى أدرا دون أن يضطلع بأى حملة، لأنه لم يكن يضم سوى عددا قليل من الرجال؛ إضافةً إلى النقص الحاد فى المؤن، لأن الجنود كانوا قد أتوا بالفعل على القمح والشعير اللذين ألفوهما فى حقول داالياس. انطلاقًا من رغبة الماركيز فى مغادرة ذلك الموقع، طالب بتدعيم جيشه، وتزويده بالرجال، وبكل ما يلزم من أمور أخرى لابد من توافرها حتى يتسنى له القضاء على العدو وإخضاع الأراضى. بعد أن دارت نقاشات مطولة فى مجلس جلالة الملك حول قيام الماركيز بتلك المهمة، اتُخِذَ قرار بأن يدخل الأمر حيز التنفيذ، لأن الوضع لم يعد يحتمل التأخير لوقت أطول. هنا صدرت الأوامر إلى القائد العام للقوات لكى يحمل على متن السفن التابعة له كلاً من: الجنود المحنكين القادمين من إيطاليا[1]، والرجال الذين كانوا تحت قيادة السيد خوان دى مندوثا فى أورخيبا -على أن يقلهم من شاطئ مطريل-، والفرق الخمسة التى تتبع ماركيز فابارا Favara- وكانت عبارة عن الكتائب الأربعة الخاصة بمدينة قرطبة والتى يرأسها كل من فرانثيسكو دى سيمانكاس، وكوسمى دى أرمنتا، والسيد بدرو دى أثيبيدو Pedro de Acevedo، والسيد دييغو دى أرغوتى- بالإضافة إلى الكتيبة التى يقودها هو؛ وكذلك السيد سانشو دى ليبيا،

---

(١) لم يكن الوضع فى إيطاليا يسمح باستدعاء قوات من هناك، ومن ثم فإن ترك جبهة إيطاليا والعودة يعنى أن أمر ثورة الموريسكيين كان خطيرًا. (المراجع)

الذى ذهب لإحضار ألف رجل قطالانى محتشدين فى تورتوسا Tortosa، وذلك تحت قيادة أحد فرسان جمعية القديس سانتياغو، وكان يدعى أنتيك ساريّرا Antic Sarreira؛ على أن يتوجه بكل تلك الجموع إلى معسكر ماركيز بلش.

كما صدرت الأوامر إلى القائد فرانثيسكو دى مولينا لكى يسلّم من بحوزته من المقاتلين فى وادى آش إلى السيد رودريغو دى بينابيديس -شقيق كونت سانتيستيبان، وأن يتوجه إلى أورخيبا، ويعسكر بها مع ألف راجل وخمسمائة فارس سوف يُسلَّمون إليه فى غرناطة. على أن يتوجه السيد لويس دى كوردوبا -قائد سلاح الفرسان الموجود فى أورخيبا- إلى غرناطة؛ وقد تم تنفيذ كل تلك الأوامر لاحقًا. اصطحب القائد العام الجنود القدامى وباقى الرجال جميعًا إلى قرية أدرا؛ كما قام بثلاث رحلات من مطريل، لينقل المؤن والذخيرة والمتاع؛ بينما حمل السيد سانشو دى ليبا جنود وحدات الجيش الإسبانى من القطالانيين. بادر متعهدو التوريدات فى كل من غرناطة ومالقة باستعجال كميات هائلة من المؤونة؛ فبعثها مورد غرناطة إلى أورخيبا، بينما نقلها مورد مالقة إلى أدرا بحرًا. ولم يتم التغاضى سوى عن إيداع المؤن فى قلهرّة -وهو شىء كان ماركيز بلش قد طالب به مرارًا وتكرارًا- إما لأن الأمر لم يبد ضروريًا أو لأسباب أخرى تراءت للمجلس؛ ووفقًا لسير الأحداث لاحقًا، فقد اتضحت الأهمية البالغة لذلك المطلب، ومدى الضرر البالغ الذى نجم عن عدم وضعها هناك. كما أنه لم يتم توفير كل المؤن الذى طلبه الماركيز، لأنه كان يتم الحصول عليها بصعوبة كبيرة، حيث فر منهم العديد من سائقى عربات التموين، لأنهم كانوا ينهكون الكثيرين منهم، أو يتركوهم يموتون جوعًا لعدم رغبتهم فى خدمتهم. حيث استشرت آنذاك الرشاوى والسرقات وسوء المعاملة التى أخضعهم لها الحجاب والمفتشين.

فى تلك الآونة، كانت هناك آراء متباينة فى مجلس غرناطة، حول الأمر الذى ينبغى توجيهه إلى ماركيز بلش. فقد أراد منه البعض أن يتوجه إلى بيرا، للتأكد من الشبهات المثارة حول موريسكيى مملكتى مرسية وبلنسية وكل ذلك الساحل، وتهدئة الثورة المشتعلة فى نهر المنصورة. بينما أراد آخرون أن يبقى مستقرًا فى أدرا، على أن يخرج

منها لتنفيذ المهام اللازمة لإخضاع البشرات، وتفكيك صفوف العدو. بعد أن قضى السيد خوان دى أوستريا يومًا فى تباحث تلك المسألة، قال إنه يرى أن تمركز الجيش فى أدرا لن يمكنهم من إمداده بما يلزم على نحو جيد. لأن الطريق -برًا- سيكون طويلاً للغاية على دوريات الحراسة، التى لابد لها من الذهاب من غرناطة إلى أورخيبا، ومنها إلى أدرا؛ كما أنه لن يتسنى لهم إرسال السفن -بحرًا- فى أمان، نظرًا للأحوال الجوية المتقلبة. كما تراءى له ضرورة وجود الجيش فى منطقة تجعله أكثر قربًا من العدو، وتجعل تزويده بالإمدادات أقل صعوبة؛ وإنه من الملائم نصب المعسكر فى بلدة أوخيخار بالبشرات، فهو موضع يتوسط الطاعات، وموقعه المتميز فى المنتصف يسهل على القوات الخروج للقيام بالمهام المنوطة بهم -وهو أمر لا يمكن الاضطلاع به بصورة جيدة من بيرا، نظرًا لموقعها البعيد.

بعد أن استقر الجميع على ذلك الرأى، عرض عليهم ماركيز مونديخار عائقًا كان يبدو كبيرًا من وجهة نظره، لأنه كان لابد من المرور حتمًا على بيرخا من أجل الذهاب من أدرا إلى أوخيخار. وهناك ممر، فى الطريق بين بيرخا وأوخيخار، يتعين عنده عبور الجبل من صخرة مثقوبة، لا يمكن للجيش المرور منها سوى رجلا تلو الآخر؛ وإذا ما تمركز الأعداء هناك -حيث لابد لهم من الاستجابة للإشارات الدخانية، التى سيتم إشعالها حين رؤية الجيش يغادر موقعه- فمن الممكن أن يلحق بالمسيحيين ضرر بالغ. أدى ذاك العائق إلى إثارة جو من القلق بين أعضاء المجلس، لأنهم كانوا يدركون أنه لا يوجد طريق سواه ؛ فأمروا بمثول الأدلاء[٢] أمامهم، واستفسروا منهم بصفة خاصة عما إذا كان هناك طريق آخر يمكن السير فيه، من أجل تجنب المعبر الذى تحدث عنه ماركيز مونديخار. فأجابهم هؤلاء بأنه إذا ما دار الجيش حول المكان لمسافة فرسخ، فسيصبح من الممكن تلافى المرور به، حيث سيتجه الرجال إلى لوكاينينا، ومنها إلى أوخيخار. رغمًا عن أنهم سيعبرون ممرًا سيئًا آخر فى أحد المنخفضات، يطلق عليه

(٢) أشخاص على دراية بمسالك الجبال والطرق غير المعروفة لعامة الناس. (المراجع)

المسلمون حوض البقر Haudar el Bacar، لكنه ليس بقدر الصعوبة التى يتسم بها معبر الصخرة المثقوبة Peña Horadada. فى النهاية أجمع المجلس على الكتابة إلى ماركيز بلش، لكى يسلك الطريق الذى أخبرهم به الأدلاء، ويتوجه للتمركز فى أوخيخار، دون إضاعة الوقت أو الفرصة فى الإعداد لما يجب عمله. وفيما يتعلق بالإمدادات، فإنهم سيقومون بما يلزم لتزويده بها. وسوف نتناول فى الفصل التالى الأحداث التى وقعت له فى الطريق.

الفصل الثانى

ويتناول مغادرة الماركيز لأدرا مع جيشه، وكيف خرج إليه المسلمون فى الطريق، وهزيمته لهم، وعبوره إلى أوخيخار.

فى أعقاب تنبيه ماركيز بلش إلى المكان الذى يتوجب عليه بلوغه، والطريق الذى يتعين عليه السير فيه، وبعد تهيئة كل الأمور للانطلاق، أمر الماركيز بمنح المحاربين مؤن تكفيهم لخمسة أيام. ثم انطلق من بلدة أدرا في يوم السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٥٩٦، يرافقه اثنا عشر ألف راجل وأربعمائة فارس؛ وذلك بعد أن أمر الرجال بتحميل كل المؤن والذخائر التى يمكن للأمتعة استيعابها. كان جيشه منتظم الصفوف: حيث قسمت المشاة إلى ثلاثة فرق -كل واحدة منها على مرمى بصر الأخرى. ترأس قوات الطليعة ماركيز فابارا، بينما قاد قوات المنتصف كل من السيد بدرو دى باديا، والسيد خوان دى مندوثا، والسيد خوان فاخاردو -الذى كان قائداً على قوات المشاة التى كانت تحت إمرة ماركيز بلش في أدرا-؛ وقاد أنتيك ساريرا مؤخرة الجيش. أما الأمتعة فقد توسطت المسيرة، وجاء ماركيز بلش خلف الجميع يصاحبه سلاح الفرسان. وصل الجيش فى تلك الليلة إلى بلدة بيرخا، ومكثوا بها ثلاثة أيام. بعد أن استعلم ماركيز بلش جيداً عن الطريق الذى لابد له أن يسلكه، من أجل تفادى ممر الصخرة المثقوبة، انطلق فى صباح اليوم التالى متوجهًا إلى أوخيخار عن طريق لوكاينينا، وقد انتظمت سائر صفوف الجيش على النحو الذى اتبعته فى أثناء مغادرة أدرا، ما عدا جنود بعض وحدات الجيش الإسبانى التى سارت مبعثرة. فأضحى السيد خوان دى مندوثا يتقدم الصفوف، يليه ماركيز فابارا، ثم تبعه ماركيز بلش برفقة سلاح

الفرسان، ومن ورائه أنتيك ساريرا والسيد خوان فاخاردو، بينما سار خلفهم جميعًا السيد بدرو دى باديا.

كان ابن أمية قد تلقى أنباء عن الجيش القوى الذى يتم تجهيزه لملاقاته، فقام باتخاذ ثلاثة تدابير: حيث بعث إيرناندو الحبقى إلى الجزائر برسائل، حتى يسعى لجلب أى قوات لنجدته؛ كما حمل السيد إيرناندو الصغير على التوجه لجمع أكبر عدد من الرجال يتسنى له حشده من نواحي ألمرية، ونهر المنصورة، وجبال بسطة وفيلابريس؛ وأصدر أوامره إلى بدرو دى مندوثا الحسين لكى يدافع عن مدخل البشرات ضد هجوم جيشنا، مع خمسة آلاف رجل. بيد أن الحسين ذاته أخبرنا[٣] لاحقًا أنه لم يتلق أمرًا بالقتال، وإنما بمناوشة الجيش، لأن المسلمين كانوا قد اتفقوا على عدم القتال إلى أن تجتمع سائر قواتهم. فى أثناء مسيرة صفوف جيشنا شيئًا فشيئًا، وأذرع قواتنا من حملة البنادق تصحبهم فى حرية على كلا الجانبين، بينما يتقدم الركب بعض الفرسان والمشاة لاستطلاع الطريق، فإذا بالكشافون يصلون -فى الساعة الثامنة صباحًا- إلى بعض المنحدرات الجبلية الكائنة إلى اليمين من ممر حوض البقر، حيث اكتشفوا وجود المسلمين -الذين كانوا متناثرين على تلك الروابى، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية. استمر السيد خوان دى مندوثا فى طريقه، ووصل إلى سهل يقع إلى جوار المنخفض، حيث أوقف مسيرة الجنود بعد أن أصبح في مواجهة الأعـداء. فشرع أولئـك فى سب الجنود، وجاءوا بأقوال وأفعال فاحشة اعتاد من هم على شاكلتهم من الهمجيين الإتيان بها.

هبط بعض الجنود إلى المنخفض، رغبةً منهم فى الشروع فى تبادل إطلاق النيران مع الأعداء، ريثما يحتل ماركيز بلش إحدى الروابى مع سلاح الفرسان. فلمّا شهد الماركيز بدء الاشتباك دون أمر منه، أرسل من يأمر السيد خوان دى مندوثا بالتوقف؛ ثم مر هو إلى المقدمة، وعنّفه قائلاً إن هذه جرأة من جانبه، كان من الممكن أن تورد

(٣) مارمول يستقى الأخبار من مصادرها، بما فى ذلك مصادر الأعداء. (المراجع)

الجيش مورد التهلكة. وبينما إمارات الغضب بادية على وجهه، أمر السيد خوان فاخاردو أن يتقدم إلى الطليعة برفقة ألفين من المشاة، وأن يبادر بالهجوم على الأعداء، محاولاً تنحيتهم عن تلك المواضع. ومن ناحية أخرى قام بإرسال السيد خوان إنريكيث إلى أعلى الهوة مع بعض الفرسان، للبحث عن معبر يمكن لسلاح الفرسان المرور من خلاله. بدأ المسلمون فى الدوران على أعقابهم، وخلال فترة وجيزة انسحبوا. لكنهم ما لبثوا أن عاودوا الالتفاف، مظهرين رغبتهم فى القيام بأى هجوم، بوصفهم أناسًا يفترض أن يتولوا الدفاع عن ذلك المعبر. وعندما أبصروا صعود ذراع آخر من حملة البنادق، وفى المنتصف بعض الفرسان الذين أخذوا يحاصرونهم، لم يجسروا على الانتظار، ولاذوا بالهرب. فى تلك الآونة، كان جنود المقدمة قد بدأوا فى مناداة سلاح الفرسان من أجل أن يلحق بهم؛ فما كان من ماركيز بلش إلا أن ذهب وسار على أثرهم، مخلفًا وراءه -أعلى الربوة- السيد خوان إنريكيث فى صحبة ألوية المقاتلين القطالانيين، وجنود وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى.

كان المسلمون يفرون عبر تلك الروابى عائدين إلى لوكاينينا، ولم تواتهم الشجاعة للانتظار فى أى مكان، فواصلوا سيرهم إلى أوخيخار ومنها إلى بالور -حيث مكان وجود ابن أمية- بعد أن خلّفوا وراءهم أكثر من خمسين قتيلاً ممن تمكن رجالنا من اللحاق بهم؛ وكان من الممكن أن يجهز جنودنا على المزيد منهم، لولا الحر الشديد، الذى خارت بسببه قوى الخيل والرجال، وكان هناك بعض الجنود ممن ماتوا عطشًا فى أثناء المطاردة. وقد أمضى جيشنا ليلته تلك فى لوكاينينا، بعد أن اختل نظام صفوفه إلى حد بعيد، حتى أن ماركيز بلش ترجل عن فرسه أسفل بعض أشجار السنديان. فى تلك الأثناء، رأى السيد خوان إنريكيث الممر الذى يعلو المنخفض خاويًا، فحمل المشاة على التقدم إلى الأمام، وبقى مع الفرسان لتأمين عبور المتاع، إذا ما قام الأعداء بأى هجوم. كان عدم إقدام العدو على الهجوم أمرًا جيدًا، نظرًا للارتباك والفوضى العارمة التى حدثت؛ حيث سقطت الأمتعة واحدًا فوق الآخر، ومات الكثيرون. ولّما كان من الضرورى تحصيل الذخيرة والمؤن التى كانت فى حوزتهم، توقف الجيش لفترة طويلة،

حتى حل عليهم الظلام. حينئذ اجتمع القادة للتشاور، واتفقوا على البقاء فى ذلك الموضع حتى اليوم التالى، وأرسلوا سيافين لإخبار ماركيز بلش بما جرى، من أجل أن يضع كتيبتين أو ثلاثة للحراسة فى الطريق، من أجل مرافقة المتاع الذى بدأوا فى إرساله شيئًا فشيئًا؛ بيد أن ذلك الأمر لم يتم تنفيذه، لأن السيافين لم يعثرا عليه خلال تلك الليلة، بسبب ترجله عن جواده على النحو الذى ذكرناه آنفًا.

فى اليوم التالى قام القادة بتحميل الأمتعة، وإعدادها للطريق على أفضل وجه تسنى لهم -بعد تكبد صعوبات ليست بالهينة-؛ فسار السيافون فى المقدمة محملين بالبارود، والرصاص، والحبال الخاصة بالجنود الذين قضوا نحبهم، على ظهور الدواب، حتى لا تظل تلك الذخيرة هناك. انطلق الماركيز من مقر مبيته فى لوكاينينا، بعد أن قام بحشد كل الرجال، وتوجه فى ذلك اليوم إلى أوخيخار؛ ثم دلف إلى المدينة حتى أضحى على مرأى من الأعداء -الذين تشكلوا على هيئة صف واحد- على سفوح الجبال، فتراجعوا فيما بعد إلى بالور دون أن يبادروه بالهجوم. فى تلك الليلة ذاتها وصل السيد إيرناندو الصغير بصحبة أعداد هائلة من الرجال الذين جمعهم من البقاع التى كان قد قصدها. وعندما شاهد الصغير جيشنا الموجود فى أوخيخار، وعلم مدى تخاذل الحسين عن الدفاع عن المعبر الذى كان قد ذهب لحمايته، وأنه لم يجرؤ كذلك على الهجوم فى اليوم التالى، فقد الثقة فى مسألة الحرب، وقال إنه لم يعد هناك وقت للانتظار؛ فعاد أدراجه إلى مورتاس، ومات -فى غضون أربعة أيام- متأثرًا بمرض ألم به، وذلك فى مكان يدعى ميثينا دى تيديل[٤] Mecina de Tedel. مكث ماركيز بلش فى أوخيخار طوال يومين، وحينما تنامى إلى علمه أن ابن أمية قد حشد رجال البشرات فى بالور، وأنه عازم على القتال، بدا له أنه ما من حاجة للانتظار قبل الذهاب للقضاء عليه؛ فأراد استطلاع الطريق الذى يمكن أن يسلكه، من أجل أن تصير اليد العليا لسلاح الفرسان، ويستطيعوا ملاحقة العدو. وقد أخبره المرشدون أنه لا يوجد طريق

(٤) ورد الاسم قبل ذلك ميثينا دى توديل (المترجمة).

يتيح له الذهاب عبر الأراضي السهلية، بل إنه يتعين عليه الدوران حول المكان على مدار يوم كامل، ثم المبيت في الطريق عند بقعة تفتقر إلى المياه؛ فأراد أن يذهب هو بذاته لاستكشاف الطريق. عندما تراءى له أن الدرب الأيمن الذي يسير صعوداً باتجاه النهر ليس بقدر الصعوبة التي تحدث عنها المرشدون، قرر أن يسلكه طلبًا للعدو.

الفصل الثالث

يتناول كيف توجه جيشنا لملاحقة العدو، وكيف قاتله فى بالور، وتغلب عليه.

فى أعقاب استطلاع ماركيز بلش للطريق، وعزمه على السير فيه، شرع فى التحرك مع الجيش بأكمله فى اليوم الثالث من شهر أغسطس، وذلك بعد الاستماع إلى القداس، وقيام كل المؤمنين بتمجيد الرب. ترأس طليعة القوات السيد بدرو دى باديا، الذى كان معه الجنود القدامى فى وحدات الجيش الإسبانى، بالإضافة إلى الجزء الأكبر من وحدات الجيش الإسبانى من القرويين -وقد اختلط هؤلاء بأولئك. ثم تبعه ماركيز بلش برفقة سلاح الفرسان، وكان يحمل أسلحة سوداء بلون الفولاذ، ويعتمر على رأسه خوذة مكسوة بالريش يطوقها إطار أحمر، وينتهى بعقدة كبيرة للغاية من الخلف؛ وقد حمل فى يده رمحًا سميكًا، قويًا طويلاً. أما الجواد الذى كان يعتلى صهوته، فلونه أبيض يميل إلى الصفرة، ويغطيه سرج يعلوه ريش كثيف عند مقدمة رأس الفرس؛ الذى وقف بعد أن اكتسى بحلته فى هياج شديد، مزهوًا بنفسه وهو يلوك اللجام الحريرى بأسنانه، فباتت هيئته وهو يشرف على تلك الحقول خير تمثيل لأبهة وقوة القائد العام الذى يمتطيه. بعد سلاح الفرسان صُفَّت الأمتعة، ثم تلاها فى المنتصف ماركيز فابارا مع كتائبه وعدد من كتائب مملكة مرسية. وفى مؤخرة الجيش جاء أنتيك سارِّيرا مع القطالانيين، يتبعه السيد خوان دى مندوثا. كانت جميع تلك السرايا لها أذرع من الجنود حملة البنادق على كلا الجانبين، فكانوا يشغلون السفوح وقمم الروابى التى بدا من الممكن أن يتربص بهم الأعداء من خلالها. وشرعوا يسيرون شيئًا فشيئًا على تلك الهيئة إلى أعلى النهر.

كان العدو قد تمركز مع رجاله جميعًا على سفح إحدى الروابى الكائنة أسفل بالور، وقد رفعوا راياتهم، وأخذوا يدقون الطبول ويعزفون على الناى فى تناغم شديد حتى أصم صوت الموسيقى من بتلك الأودية. وكانوا قد أودعوا بإحدى الروابى، التى تعلو النهر والطريق -الذى لابد لرجالنا من السير فيه- خمسمائة رام منتقين، من أجل الدفاع عن ذلك المعبر. ما إن وصلت طلائع جيشنا إلى تلك الربوة، حتى قام السيد بدرو دى باديا، وفرسان آخرون من أصدقائه -ممن كانوا قد ترجلوا عن خيولهم، ووضعوا أنفسهم فى الصف الأول بمقدمة الجيش- بالهجوم فى حماسة على الأعداء، الذين ترقبوهم وتصدوا لهم، كما لو كانوا جنودًا منظمين. وقد حاربوهم على نحو تعين معه أن يستمر رجالنا فى القتال لفترة طويلة، لكنهم فى النهاية انتصروا عليهم، واخترقوهم، وقتلوا ما يربو على مائتى مسلم؛ على الرغم من أنه قد قتل منا أيضًا ثلاثون مسيحيًا. وكذلك فقد كان لزامًا أن يهب سلاح الفرسان لنجدتهم، لأن ابن أمية كان يسير أمامهم جميعًا فى أبهى منظر، وقد اعتلى فرسًا أبيض اللون، وارتدى جبةً لونها قرمزى، واعتمر عمامةً تركيةً على رأسه؛ وأخذ يتجول من طرف إلى آخر، ويحمّس رجاله. كما حثّهم على التقدم إلى الأمام، والقتال باستبسال للثأر من أعدائهم؛ وألا يهابوا اسم ماركيز بلش، لأن الله يقف إلى جوار عباده فى وقت الشدائد. وإذا لم يمنحهم النصر، فلابد أن يظفروا بميتة مشرفة وهم يحملون أسلحتهم فى أيديهم، وهذا أفضل لهم من العيش فى خزى.

من جهة أخرى، حينما رأى ماركيز بلش أن من فى الطليعة يطالبون بوجود الفرسان معهم جنبًا إلى جنب، أمر ابنه السيد دييغو فاخاردو أن يتقدم بالفرسان إلى الأمام. فعبر من عند ساقية تقع على الجانب الأيسر من النهر، وأخذت الخيول تعبر واحدًا تلو الآخر، لكى لا تختل صفوف المشاة لأن الممر كان ضيقًا. وقد تبعه السيد خيرونيمو دى قزمان Jerínimo de Guzmán مع نفر من الفرسان القرطبيين، والسيد مارتين دى أبيلا مع فرسان شريش الفرنتيرة Jerez de la Frontera؛ فارتقوا سفح الربوة، وواصلوا الصعود بمجهود شاق إلى بعض الكرمات الموجودة فى المنتصف، وهناك هجموا على الأعداء. عندما شهد المسلمون صعود الفرسان إلى أماكن ما كانوا

يعتقدون فى إمكانية أن تطأها الخيل، بدأ اليأس ينتابهم، وظنوا أنهم هالكون؛ فتركوا الموضع والمكان بأسره، ولاذوا جميعًا بالفرار. حينما رأى ابن أمية الهزيمة التى لحقت برجاله، وأدرك إنه لن يتمكن من إيقافهم، أدار هو أيضًا ظهره للمعركة، ووصل إلى منخفض به هوة من الصخور ما بين بالور وميثينا؛ فنزل من على صهوة فرسه، وعقره. ثم توغل فى شعاب الجبال مع ستة فقط من المسلمين الذين تبعوه، مخلفًا وراءه جثة دييغو دى ميرونيس -قائد حصن سيرون-، وأحد حجاب جبل فيلابريس يدعى خوان الوزير -وكان قد أسره لعدم رغبتـه فى التحول عن عقـيدتنا المقـدسة- مشنوقين؛ حيث أراد أن يسهم ذلك المشهد فى تعطيل رجالنا.

واصلت الخيول صعود الجبل لفترة من الوقت، حتى بلغت الأعداء عند القمة، مما أفقد المسلمين تفوقهم. وصل المشاة على مقربة من بالور، فلم يتوقفوا عندها، وتابعوا مسيرتهم حتى المنخفض الذى كان ابن أمية قد عقر فرسه عنده -وكان يقع على مسافة فرسخ تقريبًا إلى الأعلى-؛ فقضوا هناك ليلتهم، نظرًا لوفرة المياه والأخشاب من شجر السنديان. كان جواد ماركيز بلش قد نفق لدى تسلق المرتفع، فامتطى فرسًا آخر، وواصل صعوده باتجاه اليمين، حتى بلغ ميناء لوه مع السيد ألبارو باثان -ماركيز سانتا كروث- والسيد خورخى بيكى Jorge Vique وفرسان آخرين، بالإضافة إلى مجموعة مؤلفة من خمسين فارسًا. بعد مرور خمس ساعات أو أكثر، ترك الماركيز الجبل وتوجه إلى حصن قلهرّة، حيث بدا له أنه ليس من المناسب أن يرجع ليلاً من المنطقة التى يوجد بها الأعداء بينما الجياد متعبة؛ أو -وفقًا لما قاله فيما بعد- أن المؤن الموجودة فى المعسكر لم تكن تكفى سوى لتلك الليلة واليوم الذى يليها -على أقصى تقدير. وكانت الحاجة ملحة لدى القطالانيين على وجه الخصوص، لأنهم كانوا قد تركوا نصف مخصصاتهم فى أدرا، لكى لا يحملوها على كواهلهم. فأراد الماركيز أن يذهب إلى هناك، ليأمر بإحضار بعض المؤن الموجودة فى ذلك الحصن، وإذا لم يكن بها زاد، فسوف يعالج الأمر من خلال وجوده، ويعمل على إرسالها من مكان آخر. عندما لم يعثر الماركيز على أى شىء يمكن الحصول عليه، أرسل فى التو إلى كل من وادى آش وبسطة وغرناطة، لكى يزودوه ببعضها على وجه السرعة.

توجه أسقف وادى آش والسيد رودريغو دى بينابيديس لزيارة الماركيز فى صباح اليوم التالى. وجلبوا معهم ما يربو على مائتى حمل من الخبز والكعك، فعاد بهم فى ذلك اليوم إلى الجيش، فوجده يعسكر فى بالور -التى توقف بها لمدة يومين فى انتظار وصول دوريات أخرى. حينما أدرك الماركيز أنه ليست هناك دوريات، كما أنه ليس لديه أنباء عن وصول دوريات إضافية، قام بإضرام النيران فى المنازل التابعة لابن أمية فى ذلك الموضع، ثم ذهب ليعسكر فى أعلى بقاع ميناء لوه. شرع الجنود يهيمون دون هدى فى ذلك الموضع، ولم يعد ممكنًا إيقافهم بعد أن شاهدوا الأراضى السهلية؛ من هناك توجه إلى وادى آش كل من ماركيز سانتا كروث وماركيز فابارا. أعيا هواء الجبل العديد من الأشخاص، واعترى الباقون الجوع الشديد، حتى بات من الضرورى النزول بكل الجيش إلى قلهرّة، لأن الماركيز كان على ثقة من أنه يمكن أن يقتات الجنود من الأطعمة التى يجلبها الباعة، ريثما يمدّه وزراء جلالة الملك بما يلزمه من مؤن.

عندما عسكر الجيش فى قلهرّة، بدأ الجنود فى مغادرة المعسكر بشكل أكثر وضوحًا، حيث أصبح بمقدورهم المغادرة على نحو أفضل؛ وعلى الرغم من أن السيد خوان دى أوستريا قد بعث لاحقًا بالأب بيرو لوبيث دى ميسا Pero López de Mesa - مأمور المحكمة العليا فى مدينة غرناطة- من أجل أن يزود الماركيز بالمؤن من مدينة وادى آش على نحو عاجل، فإنه لم يتمكن من إرسال كل تلك الكمية دفعةً واحدةً، بحيث تكفى لسد العجز فى الحالة الراهنة. وهكذا مكث الجيش لأيام عديدة فى ذلك المعسكر، وظل يستهلك مؤن ذلك الإقليم دون الاضطلاع بأى مهمة. فى أثناء وجود ماركيز بلش فى قلهرّة، توفى صهره السيد إنريكى إنريكيث فى بسطة على أثر مرض ألم به، فأرسل السيد خوان دى أوستريا عوضًا عنه السيد أنطونيو دى لونا مع ألف من المشاة ومائتين من الفرسان. حيث بقى فى تلك المدينة منذ الرابع عشر من شهر أغسطس، وحتى الخامس عشر من شهر نوفمبر؛ وقد ظل بدلاً منه فى غوطة غرناطة السيد غارثيا مانريكى García Manrique - ابن ماركيز أغيلار Aguilar. لننتقل الآن إلى تناول المباحثات التى أجراها إيرناندو الحبقى فى مدينة الجزائر مع أولوج على، حول قوات الإغاثة التى طلبها منه ابن أمية.

الفصل الرابع

ويتناول ذهاب إيرناندو الحبقى إلى شمال إفريقيا طلبًا للنجدة، والكيفية التى عاود بها ابن أمية تكوين صفوفه بفضل قوات الإغاثة التى وصلت إليه من الجزائر ومن مناطق أخرى.

انطلق إيرناندو الحبقى من إسبانيا فى ثالث أيام شهر أغسطس -وكان ذات اليوم الذى منى فيه ابن أمية بالهزيمة فى بالور-، فوصل إلى الجزائر فى غضون ثمانية أيام، وألح فى الطلب على أولوج على من أجل أن يمده بدعم من السفن والمحاربين؛ وكان قد وسّط فى الأمر بينهما بعض المرابطين من أجل أن يحضّوه على القيام بذلك بدافع الدين. فما كان منه إلا أن نادى بين الناس أن على كل من يرغب من الأتراك أو المسلمين أن يذهب لإنقاذ الأندلسيين -كان هذا هو الاسم الذى يطلقونه فى إفريقيا على مسلمى مملكة غرناطة-، يمكنه القيام بذلك فى حرية. لكن فيما بعد، حينما رأى أن الكثير من الرجال قد هبوا لتلبية النداء، وأن منهم أناسًا رفيعو الشأن، قرر أنه سيكون من الأفضل أن يحملهم بنفسه إلى مملكة تونس -وكان ذلك ما قام به. هذا وقد أصدر عفوًا فى الجزائر يقضى بالصفح عن كل المجرمين والفارين على إثر ارتكابهم لجرائم، إذا ما أرادوا الذهاب إلى إسبانيا للوقوف إلى جوار المسلمين الأندلسيين.

انتقى الحبقى من بين أولئك الناس أربعمائة رام، تحت إمرة رجل تركى شرير من مثيرى الفتن يدعى حسين Hoscein، وركبوا ثمانى سفن -أودع بها بعض الأشخاص كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة لبيعها إلى المسلمين- وأتى بهم جميعًا إلى البشرات. بالإضافة إلى تلك الإمدادات، وغيرها من المعونات التى تم جلبها من تطوان

على متن سفن أخرى كانت محملة بأسلحة وذخيرة جلبها تجار مسلمون ويهود، تشجع أعداء الرب للمضى قدمًا فى مخططهم الآثم، وزادوا من تحصيناتهم، حيث لم يكن هناك جيش مسيحى يرهبون جانبه فى البشرات بأسرها. فيما بعد عاود ابن أمية تجهيز حدوده، بينما قام المسلمون -الذين رجعوا للتحصن فى قراهم- بزراعة محاصيلهم، والعمل فى مزارعهم، وإنتاج الحرير -كما لو كانوا ينعمون بالأمان والراحة فى منازلهم. أما حسين -الذى كان قد بث الأمل فى نفوسهم، بعد أن أخبرهم إن أولوج على قد أرسله امتثالاً لأمر الباب العالى، حتى يتعرف على تضاريس الأرض وأحوالها، وعدد من بها من الموريسكيين القادرين على حمل السلاح- فقد أراد أن يشاهد بقاع نهر المنصورة وألمرية وجبل فيلابريس وسائر أنحاء البشرات؛ وقد أعقب ذلك بالدخول سرًا إلى مدن غرناطة ووادى آش وبسطة. بعد أن أخبره القاطنون هناك بكل المعلومات اللازمة، قال لهم إنه يود لو أن له جناحين ليطير بهما إلى مولاه الباب العالى ويقص على مسامعه ما رآه؛ ثم عاد أدراجه إلى شمال إفريقيا، محملاً بالنفائس والجواهر والأسرى الذين قام أهالى البقاع التى قصدها بمنحه إياهم. سوف ننتقل الآن لتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى منطقة وادى ليكرين، والكيفية التى أغار بها المسلمون على بلدة بادول لتأليب أهلها على الحكم، والتغلب على المعقل الموجود بها من أجل تأمين دوريات الحراسة.

الفصل الخامس

ويتناول الكيفية التى هاجم بها مسلمو وادى ليكرين النقطة الحصينة التى أنشأها رجالنا فى بادول، وكيفية إضرامهم النيران فى منازل البلدة.

مع ورود أنباء عن مجيء النجدة من إفريقيا، عاد الثوار إلى عنادهم. وقد تم تنبيه موريسكيى البادول -الذين لم يعودوا قادرين على تحمل التكلفة المعتادة، ومضايقات ونكايات المحاربين المقيمين لديهم فى منازلهم- إلى أن الثوار قد أصدروا أوامر بتوجه رجالهم إلى بلدتهم ونشر الثورة بينهم؛ فقادهم نفر من ذوى البصيرة النافذة من الأهالى، وحزموا أمرهم على طلب الإذن من السيد خوان دى أوستريا، لكى يسمح لهم بالذهاب إلى قشتالة برفقة نسائهم وبنيهم. وفى أثناء تداولهم فى ذاك الشأن، نصحهم قسيس من الكهنة القانونيين لبلدة غوخار Gójar أن يطلبوا من السيد خوان أن يدعهم يتجهون إلى هناك لإعمار ذلك المكان، لأنه بات مهجورًا وكان قاطنوه قد ذهبوا إلى الجبال. وقد أُذن لهم لاحقًا فى القيام بذلك، فبادروا بنقل ديارهم إلى غوخار على وجه السرعة. وما كادوا يغادرون البلدة، حتى تجمع مسلمو وادى ليكرين وبلدان غواخار وبقاع أخرى متاخمة، فبلغ عددهم ما يربو على ألفى محارب -كان من بينهم العديد من الرماة والقوّاسين-؛ وقد عزموا على مهاجمة بادول عند الفجر، ونحر من كان بها من المسيحيين فى المعقل، واصطحاب الموريسكيين إلى الجبال.

انطلاقًا من ذلك العزم، غادرت الجموع لاس ألبونيويلاس فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس لعام ١٥٦٩، فسارت طوال تلك الليلة، وقصدت طريق غرناطة من أجل تضليل دوريات الحراسة، ومباغتة رجالنا وهم غافلون. ثم عادوا

ليسلكوا الطريق ما بين تلك المدينة وبادول، بعد أن انتظمت صفوفهم؛ وبدأوا يتقدمون شيئًا فشيئًا بالكيفية التى اعتادت الكتائب المصاحبة لدوريات الحراسة أن تسير بها. وهكذا اقرتبوا من المكان مع انبلاج ضوء النهار، فاكتشفتهم دورية المراقبة المتمركزة أعلى برج الكنيسة؛ ورغمًا عن أنهم قرعوا ناقوس الإنذار، وقالوا إن أعدادًا غفيرة من المسلمين قادمة من طريق غرناطة، لم يتحرك الجنود أو يشهروا أسلحتهم؛ بل إن هناك من قالوا إن من يتولى المراقبة لابد وأنه مخمور، فكيف يتأتى للمسلمين القدوم من غرناطة؟ وبينما الأمور على هذا النحو، أطلت القوات – فى أحد عشر لواء مرفوعين– من إحدى البقاع التى كان بها صليب منصوب عند مدخل القرية، وذلك فى موضع قريب من منازل البلدة. فوثبوا على المحل فى زخم كبير، قبل أن يتسنى لرجالنا جميعًا اللجوء إلى نقطة حصينة كانوا قد أقاموها حول الكنيسة، فقتل المسلمون ستة وثلاثين جنديًا، واستولوا على ثلاثين فرسًا من إحدى كتائب المحاربين القرطبيين الموجودة بالمعقل، والتى كان يترأسها السيد ألونسو دى بالديلومار Alonso de Valdelomar. كما نهبوا القدر الأكبر من المنازل، وحصلوا على كميات كبيرة من الغنائم والنقود؛ ثم هجموا على الحصن ذاته بالحمية نفسها، ظنًا منهم فى وجود عدد قليل من الرجال للدفاع عنه.

استبسل فى الذود عن المكان كل من: القائد بدرو دى ريدروبان Pedro de Redrovan– أحد أهالى كورال دى ألماغير Corral de Almaguer– الذى كان يتولى رئاسة الحصن؛ والسيد خوان تشاكون –مواطن أنتيقيرة– الذى كان قد تمركز فى ذلك المعقل قبيل يومين، بناءً على قرار من السيد خوان دى أوستريا، وذلك برفقة مائة وخمسين جنديًا من أفراد كتيبته؛ واثنين من القادة الآخرين يدعيان : بدرو دى بيلتشيس –وهو من مواطنى مدينة جيان–، وخوان دى تشابيس دى أوريانا –وهو من أهالى مدينة تروخيو–، وكان قد عاود بناء كتيبته عقب الهزيمة التى مُنى بها فى منخفض الساقية(*)؛ فقتلوا عددًا لا بأس به من المسلمين، وحملوهم على التراجع إلى الوراء.

(*) انظر الفصل الثالث والثلاثين من الكتاب السادس. (المترجمة)

عندما أدرك هؤلاء أنهم لا يمتلكون القوة التى تخول لهم اقتحام الحصن بعد معركة بالأيدى، أرسلوا ما يزيد على خمسمائة رجل ليجلبوا من الكرمات كميات من الأغصان والشوك والقش، ثم أضرموا النيران فى كل منازل البلدة، ظنًا منهم أيضًا فى إمكانية إحراق من بداخل الحصن. بعد أن أضحى الجميع مغطين بألسنة اللهب والأدخنة، لم يوقف المسلمون هجومهم على الأماكن التى اعتقدوا أنه من الممكن اقتحام المعقل منها؛ فباتوا يخرقون المنازل ويثقبون الحوائط فى العديد من الأماكن. بيد أن الشجاعة المشهودة والجهد الوافر الذى بذله قادتنا وجنودنا أفلحا فى التصدى لكل تلك المحاولات، ليس من دون إلحاق ضرر كبير بالأعداء.

كان هناك بيت كبير خارج البلدة، وكان يعيش فيه رجل من إقليم الباسك -مسقط رأسه فى بلدة بيرغارا Vergara- يدعى مارتين بيريث دى أروثتيغى Martín Pérez de Aroztigui. بعد أن اصطحب الرجل زوجه وأبناءه إلى غرناطة، تصادف وجوده فى داره فى أثناء تلك الليلة، مع أربعة من الغلمان المسيحيين، وثلاثة من أصدقائه الموريسكيين -الذين كانوا قد ذهبوا ليعيشوا فى غوخار، وأرادوا الاحتماء به . كان هجوم المسلمين على تلك الناحية مباغتًا للغاية، فلم تسنح الفرصة للرجل للتحصن داخل المعقل، فقام بذلك فى منزله بعد أن أحكم إغلاق الأبواب بالأخشاب والحجارة. حينما ألفى مارتين نفسه فى خطر محدق، لأن البيت لم يكن به سوى بندقية واحدة، قال لمن بحوزته من الموريسكيين أن يتحدثوا إلى المسلمين ويرجوهم ألا يلحقوا ضررًا بشخصه أو بأملاكه، فهم يدركون أنه صديقهم، وأنه طالما وقف إلى جانبهم فى تعاملاته معهم فى وقت السلم. أجاب هؤلاء أن ما يقوله صحيح، وأنه يتعين عليه أن يسلّمهم النقود والبندقية إذا كان يريد أن يدعونه يذهب فى حرية إلى غرناطة. لكن الرجل لم يكن يشأ أن يفعل ذلك، فقال لهم إنه ليس لديه نقود، وإن البندقية لن تفارقه طالما بقى على قيد الحياة. عندئذ قام الأعداء بالهجوم على المنزل، وأشعلوا فيه النيران من كل الجهات، كما سعوا أيضًا لإحداث فتحة صغيرة فى أحد الحوائط التى تقع ناحية الحقول باستخدام المعاول والفئوس. لم تنقص مارتين بيريث الشجاعة لصد الهجوم، وحينما وجد نفسه يكافح ضد النيران والبنادق والأقواس -التى لم تمنحه الفرصة للإطلال من النوافذ لقذف الحجارة-

صرف انتباهه إلى الحاجة الملحة: فألقى الماء على باب المنزل الذى يشتعل، كما قذف أحجاراً كبيرة باتجاه الحائط الذى كان المسلمون يحاولون اختراقه؛ وقد حاول أيضاً أن يصيبهم بنيران البندقية -ولم يكن قد جرؤ على القيام بذلك إلى تلك اللحظة، ظناً منه فى إمكانية تعطيلهم بالكلمات المعسولة إلى حين وصول النجدة. وقد أظهر فى النهاية براعة فائقة، حتى أن كل رصاصة قام بإطلاقها أسقطت واحداً من المسلمين؛ وبعد أن قُتل سبعة من أكثر المسلمين قتالاً فى المعركة، ارتأى الآخرون أنه من الأفضل أن يتراجعوا إلى الخارج.

فى تلك الأثناء، كانت المعارك الدائرة فى الحصن وفى المنزل قد مضى عليها ما يزيد على أربع ساعات، فقام رجال المراقبة -الذين وضعهم الأعداء فى ناحية غرناطة- بتنبيههم إلى قدوم رجال على صهوات الجياد، فتراجع المسلمون إلى الوادى دون أن يحدثوا أثراً سوى ما ذكرناه من قبل. إبان وصول المسلمين إلى بادول، غادرها أحد حملة الدروع القرطبيين، فعبر من خلالهم، وتوجه لتحذير السيد غارثيا مانريكى، الذى كان موجوداً فى أوتورا -وهى إحدى قرى غوطة غرناطة-؛ ثم عبر إلى المدينة لينبه كذلك السيد خوان دى أوستريا. كانت القوات التى اكتشف المسلمون قدومها مكونة من ستين فارساً كانوا قد تقدموا المسيرة برفقة السيد غارثيا مانريكى؛ فانضموا إلى أحد عشر جندياً من حملة الدروع كانوا قد مكثوا فى البادول، وخرجوا لاقتفاء أثر الأعداء، فأصابوا بعض من تأخر منهم عن الركب بالرماح. كان دوق سيسا قد لبى النداء من غرناطة لإغاثة الحصن مع عدد وفير من المشاة والفرسان، لكنه وصل متأخراً بعد أن كان المسلمون قد سبقوه بما يزيد عن فرسخ. أمدَّ الدوق البلدة بالمحاربين، وكان ذلك الأمر ضرورياً للغاية، إذ قُتلَ خمسون جندياً وجُرِح ما يفوق ذلك بكثير؛ فأثنى على القادة لبلائهم الحسن فى التصدى لكل ذلك العدد من الرجال، وتلك النيران المتأججة -التى كانت أشد ما يرهبه الجنود- ، ثم قفل عائداً إلى غرناطة فى تلك الليلة.

الفصل السادس

ويتناول الحوارات التى دارت حول خروج ماركيز بلش إلى قلهرّة، وكيفية استدعاء ماركيز مونديخار إلى البلاط.

على الرغم من الهزيمة التى ألحقها ماركيز بلش بابن أمية فى بالور -على النحو الذى ذكرناه- فقد قام بعض المنتقدين بالانتقاص من دوره فى تحقيق ذلك الانتصار، نظراً للكيفية التى توجه بها إلى قلهرّة، تاركًا إياه فى البشرات -حيث تمكن ابن أمية بسهولة بالغة من تجميع المزيد من الرجال وإعادة بناء صفوفه من جديد. وكما يحدث دائمًا فى المجالس من تباين واختلاف فى الأهواء والمآرب - مما يدفع ذوى الحكم المعتل أن يسوقوا الحجج الصحيحة والشبهات حول نقاط الخلاف، فيشكون من الأشياء التى قد تستحق الثناء- فقد كان هناك من زعم أن الأعداء لم يكونوا بالكثرة التى تناقلتها الرسائل، وأن الماركيز قد مُنِحَ رجالاً يفوق تعدادهم ضعف ما يحتاج إليه -وفقًا لأقواله- من أجل إخضاع الأراضى. كما قيل إن الماركيز قد أضاع الفرصة لتحقيق النصر بخروجه من البشرات قبل الأوان؛ وإن خروجه كان يهدف إلى إفهام المجلس أنه من الممكن أن تطأ الخيول أراضى البشرات، وهو الأمر الذى كان يبدو صعباً من وجهة نظر مجلس السيد خوان دى أوستريا نظراً للنقص فى المؤن. وأنه بعد أن نفدت مخصصات ذلك الجيش الضخم، مكث الماركيز فى المعسكر يستنفد المزيد من الطعام مع من تبقى برفقته من الرجال دون أن يضطلعوا بأى مهمة.

عكرت تلك الأمور على ماركيز بلش فرحة الانتصار، فقد كان الماركيز يقول إنه حذّر مجلس غرناطة -قبيل مغادرته أدرا بأربعين يومًا- من أجل أن يودعوا ما يلزمه

من مؤن وذخائر فى قلهرّة، لأنه كان يدرك أنه سيلجأ إلى تلك البلدة ليسد احتياجاته؛ وأن عدم تلبيتهم لطلبه اضطره لإخراج الرجال من المكان الذى كانوا سيموتون فيه جوعًا. كما أن المجلس لم يزوده على الأقل بما يلزمه لمغادرة الموقع الذى كان فيه، مما نجم عنه تخلى الرجال عن الجيش فى كل يوم. ألقى ماركيز بلش تبعة الأمر بأكمله على ماركيز مونديخار ودوق سيسا ولويس كيخادا -لأنه كان يدرك إنهم يكنون له العداء. فكان الماركيز يضمر له ضغائن قديمة تجددت مع المهمة التى أسندت إليه وزادت من أفضليته، أما دوق سيسا فهو عدو له على الرغم من كونه ابن أخيه، وكان لويس كيخادا -وفقًا لأقوال الماركيز- منافسًا له وحاقدًا على السعادة التى ينعم بها، كما أنه أدان دخوله إلى مملكة غرناطة دون أن تصدر إليه أوامر فى هذا الصدد من جلالة الملك. إن مهمتنا ليست إدانة تلك الأمور أو تبرئة أصحابها، بل تدوينها من أجل من سيقرأ ذلك المؤلَف، لذا فإننا سنذكر فقط أن جلالة الملك -انطلاقًا من فطنته الواسعة- حينما شاهد التهم التى بات كل واحد يوجهها إلى الآخر لتبرير موقفه، قال إنه على الرغم من أن الأضرار التى ألحقها بنا المسلمون ليست جسيمة كما قيل، فإنه كان من الضرورى هزيمتهم والقضاء عليهم. وقد قام جلالته -بعدما قضى أيامًا قليلةً فى استطلاع الأمر على نحو أفضل- بإرسال خطاب إلى ماركيز مونديخار فى ثالث أيام شهر سبتمبر يأمره فيه بالتوجه إلى العاصمة، كما أمر المجلس بإرسال بيان بكل المؤن والذخيرة التى تم إرسالها إلى قلهرّة. غادر ماركيز مونديخار غرناطة فى الثانى عشر من الشهر ذاته، ووصل إلى مدريد حيث قضى الشأن الذى أتى من أجله. فيما بعد أمره جلالة الملك بالذهاب معه إلى مدينة قرطبة، وقام بدعوة المجلس هناك؛ وهكذا لم يرجع مرة أخرى إلى مملكة غرناطة، لأن الملك نصّبه نائبًا له فى بلنسية، ثم أرسله بعد ذلك ليصبح نائبه فى نابولى.

الفصل السابع

ويتناول الكيفية التى تحصن بها القائد فرانثيسكو دى مولينا فى البسيط فى أورخيبا، والمناوشات التى دارت بينه وبين المسلمين بسبب قطع المياه.

بعد أن مكث فرانثيسكو دى مولينا فى أورخيبا مع من رافقه من الرجال -على النحو الذى ذكرناه من قبل(*)- بدأ فيما بعد فى التحصن فى البسيط، وهو الموضع الرئيسى فى تلك الطاعة، وشرع فى تجهيزه لكى يمكن الدفاع عنه باستخدام عدد أقل من الرجال. لما كان القائد لديه أوامر من السيد خوان دى أوستريا لضم البرج والكنيسة إلى المعقل الذى يشيده -نظرًا لضرورة إيداع المؤن والذخائر المخصصة للجيش بهما- ولم يكن ممكنًا إقامة التحصينات على نحو مرض لوجود العديد من التضاريس التى تطل عليها من خارج الساحة والأسوار وتشكل عائقًا، بات من الضرورى إنشاء حائطين من الطوب المدقوق -أحدهما من الخارج والآخر من الداخل- لكى يتسنى للجنود الاختباء بينهما، وكذلك حفر بعض الخنادق التى يمكنهم التنقل من خلالها من جهة إلى أخرى. على ضوء عدم توفر مياه داخل المكان، وعدم إمكانية العثور عليها فى أى من الآبار الموجودة على مدى خمسين أو ستين ذراعًا، إذا كان يلزم التزود بالماء من إحدى السواقى التى يستطيع المسلمون منع مائها فى أى وقت. فقد أمر القائد فرانثيسكو بعمل حفر عميقة حول الأسوار لملئها بالمياه، لتضحى ممتلئة إذا ما حاصرهم الأعداء.

(*) انظر الباب السابع، الفصل الأول. (المترجمة)

أراد ابن أمية الهجوم على ذلك المعقل، فأرسل –فى ذات اليوم الذى اكتمل فيه الحفر– أحد عشر لواءً من المسلمين لكى يحولوا المياه عن الساقية، وأيضًا لكى يسعوا لإلقاء القبض على أحد الرجال، حتى يستعلموا منه عن أعداد الجنود التى ظلت بالداخل وما لديهم من تحصينات. وصل المسلمون على مقربة من المكان، ومن ثم قاموا بقطع المياه، وتمكنوا من فعل ذلك بسهولة بالغة لأنها كانت موجودة على مسافة نصف فرسخ من المكان. عندما شك فرانثيسكو دى مولينا فى المخطط الذى يود الأعداء تنفيذه، وشاهد الألوية المتوجهة إلى المجرى الخاص بالساقية، أرسل القائد دييغو نونييث Diego Nuñez –وهو من أهالى غرناطة– على رأس مائتين من الجنود المسلحين بالبنادق، حتى يحتل المجرى ويدافع عنه ليحول دون تحويل مجرى المياه. سعى القائد لتنفيذ ذلك الأمر، بيد أن أعداد المسلمين كانت غفيرة فلم يجرؤ على تخطى بعض الصخور، وظل يتبادل معهم إطلاق النيران من هناك على مدار وقت طويل. حينما شاهد فرانثيسكو دى مولينا ما جرى، أرسل القائد لورينثو دى أبيلا على رأس مجموعة أخرى من الرجال، وعندما تراءى له فيما بعد أن كل ما قام به ليس كافيًا لإزاحة الأعداء عن موضعهم، ترك المعقل تحت قيادة السيد غابرييل دى مونتالبو Gabriel de Montalvo –القائد الغرناطى– الذى كان يترأس سلاح المشاة ويقود الجنود فى ذلك المعقل، وخرج هو إلى الساقية فى مائة من حملة البنادق والمعاول وعشرين فارسًا.

عندما أصبح على مقربة من الصخور ألفى القائدين يقاتلان المسلمين، وحينما أبصر القائدان مجىء تلك النجدة، أغارا على العدو على نحو مكنهما من قتل بعضهم، فأرهباهم إلى حد بعيد واستطاعا أن يعيدا المياه إلى مجرى الساقية؛ وقد ظل الجنود يحرسون المصرف حتى حل المساء وهم مستمرون فى المناوشة مع المسلمين. عندئذ تراجع فرانثيسكو دى مولينا، ولكى يحمل المسلمون على الاعتقاد إنه لا يزال موجودًا، فيحول دون إقدامهم على النزول وتحويل مجرى الماء من جديد، أمر الجنود بإشعال العديد من الحبال عند أطراف صخور الجبال ما بين الشجيرات وحول الصخور؛ فتمكن من خلال تلك الخدعة الحربية من تعطيلهم، حيث ظلوا طوال الليل يطلقون

الأعيرة النارية باتجاه تلك النيران، بينما سالت المياه باتجاه الخنادق حتى امتلأت عن آخرها. حينما طلع ضوء النهار فطن الأعداء إلى الخدعة وعاودوا قطع الماء، ثم عادوا أدراجهم إلى الجبال دون أن يحدثوا أمرًا آخر. أما فرانثيسكو دى مولينا فقد أراد أن يرى إذا ما كانت الخنادق يمكنها تخزين الماء لعدة أيام، فوجد أنها سوف تجف فى اليوم التالى؛ ههنا أخرج جزءًا من التحصينات إلى الخارج حتى بلغ منخفضًا مطلاً على النهر، فأنشأ طريقًا مغطى على طريقة الخنادق من تلك البقعة، لكى يتسنى للجنود الذهاب للحصول على المياه دون أن يتعرض لهم الأعداء، وهكذا تمكن من تأمين ذلك الموضع آنذاك.

الفصل الثامن

ويتناول الكيفية التى نشر ابن أمية بها الثورة فى لاس كوبياس، ثم توجهه لمحاصرة بيرا، وكيف قامت بلدة لورقة بإغاثة تلك المدينة.

كان عالم اللاهوت ماتيّاس دى إويـرتا سارمينتو **Matías de Huerta Sarmiento** -المولود بمدينة سيغوينثا- هو الحاكم العام لمدينة لورقة. كما أنه -إلى جانب اتجاهه إلى الأدب- كان أيضًا جنديًا، وقد قضى فترةً طويلةً فى وهران فى الوقت الذى كان السيد ألونسو دى كوردوبا **Alonso de Córdoba** -كونت ألكاوديتي- قائدًا عامًا هناك، فبات خبيرًا ومتمرسًا فى شئون الحرب. ورغبةً منه فى الحفاظ على المناطق التى تقع فى نطاق سلطته، وأيضًا إدراك ما يخطط له الأعداء، أرسل بعض الجواسيس إلى نهر المنصورة. وقد أظهر همـةً عاليةً فى ذلك الأمر، وكذلك فى القبض على جواسيس الأعداء، إلى أن وقع بين يديه فى اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر اثنان من جواسيس ابن أمية. فأخضعهما للتعذيب حتى اعترفا بأن ابن أمية يتعجل الأمور حتى يتوجه للإغارة على مدينة بيرا، التى ينوى الانتظار بها إلى أن تصله قوات الإغاثة من بلاد المغرب، لكون المكان ملائمًا لذاك الغرض. كما أن مجيئه سيكون دون شك مع حلول شهر أكتوبر، أى فى نهاية شهر سبتمبر، وذلك برفقة كل من يتسنى له جمعه من الرجال؛ وأن موريسكيى قرى بلش تطوعوا لإرسال المؤن إليه فى الخفاء. على جانب آخر فقد كشفا عن هوية المسلمين الذين كانوا قد أسروا خلال تلك الأيام عددًا من المسيحيين من ماريا **María** وكاراباكا، ومواطنين من قرى أخرى.

فيما بعد أرسل القائد تلك الاعترافات إلى كل من السيد خوان دى أوستريا وماركيز بلش والقائد العام للقوات -الذى كان لا يزال يجوب الساحل بالسفن التابعة له-

حتى يأخذوا جميعًا حذرهم، ويقوموا بإرسال النجدة -بحرًا أو برًا- إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. كما أرسل ثلاثة فرسان لتنبيه مدينة بيرا لكى يصير القائمون عليها على دراية بالأمر، لأن المسلمين سوف يحاصرونها دون شك؛ وكذلك فقد أرسل بيانًا باعترافات الجاسوسين إلى المجمع الديراني، وعرض عليهم أن يغيثهم برجال من لورقة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وللتحقق من وصول تنبيه مؤكد إليه وإمكانية إغاثته للمدينة فى الوقت الملائم، كوّن دوريات مراقبة تبدأ إحداها حيث تنتهى الأخرى على مدار الطريق من لورقة إلى موخاكار؛ وقد قام أهالى موخاكار بالأمر ذاته، فنشروا الدوريات من موخاكار حتى بيرا لكى يتبادل الجنود الرسائل والتنبيهات فيما بينهم عندما يحضر الأعداء، فكانوا يرسلون إشارات دخانية فى النهار ويشعلون النيران ليلاً. كما نبههم القائد إلى ضرورة إرسال ثلاثة من الفرسان لتحذيره على وجه السرعة إبان وقوع أى هجوم تحسبًا لتخلف أى دورية عن إصدار التحذير.

رغبةً فى اختبار كيفية التواصل بين دوريات المراقبة، قام القائد فى يوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر بتجربة إرسال الإشارات الدخانية نهارًا وإشعال النيران ليلاً، فبات الجنود يتناقلونها من يد إلى يد بدءًا من بيرا حتى موخاكار، ثم إلى كومو دى غالى el Como de Gali، ثم ربوة إنميديو Enmedio، ثم ربوة غوردو Gordo، وأخيرًا إلى برج ألفونسى Alfonsi فى لورقة. لم يخطئ المسيحيون فى القيام بتلك التجربة، لأن ابن أمية -حينما أدرك أن ماركيز بلش مستقر فى قلهرّة، وأن المكان ليس به جيش ليتصدى له- أراد ان يحتل مدينة بيرا فى تلك المناسبة. فهبط إلى نهر المنصورة مع خمسة آلاف رجل، ثم انضم إليه خمسة آلاف آخرين من أهالى تلك البقاع، وقام بالهجوم على بلدة لاس كويباس التابعة لماركيز بلش، فنشر الثورة بين أهلها -وكانوا جميعًا من الموريسكيين-، كما قام بتدمير بستان بديع كان الماركيز يمتلكه هناك واقتلاع أشجاره، لكى يثأر منه على خلفية المنازل التى كان الماركيز قد أمر بإحراقها فى بالور. لم يتمكن ابن أمية من احتلال القلعة، لأن المسيحيين الذين كانوا قد تجمعوا بداخلها دافعوا عنها، توجه إلى مدينة بيرا، فأغار بجيشه على بيرا

القديمة Vera la vieja فى يوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر -الموافق عيد القديس ماتيو-؛ ومن هناك أمطر مدينة بيرا الجديدة Vera la nueva -التى تقع فى المنطقة السفلية- بوابل من الأعيرة النارية.

كان الحاكم العام لتلك المدينة هو الأب مينديث باردو Méndez Pardo، وكان قد خرج لتفقد الجيش يرافقه ثلاثون من الفرسان، ثم تراجع إلى المدينة بعد أن ظل يناوش الأعداء لفترة من الوقت؛ حيث أعقب ذلك بإرسال تحذير إلى مدينتى لورقة ومرسية، وذلك من خلال دوريات المراقبة وإرسال فرسان من أجل تنبيههم إلى الأمر -على النحو المتفق عليه. عندئذ أراد ابن أمية أن يزرع الخوف فى نفوس المواطنين، فنصب قطعتين كبيرتين من أسلحة المدفعية البرونزية كانتا بحوزته، وشرع فى قصف جزء من الجدار القديم، بينما أطلق النيران فى نفس التوقيت على المنازل التى أطل الجيش عليها من موقعه. لكن فيما بعد تم تدمير إحداهما، بينما أصاب أحد الجنود الحاملين للبنادق -كان موجوداً فى إحدى الكوات- الجندى الذى يتولى إطلاق نيران المدفع الآخر، كما نجح فى تعطيل المدفع. فى تلك الأونة، كانت دوريات المراقبة تسرع فى إرسال إشارات الاستغاثة من نقطة إلى أخرى. وبينما كان أهالى لورقة يستمعون إلى العظة قبيل انتصاف النهار بوقت قليل، وصل جنود دورية المراقبة التابعة لبرج ألفونسين[٥] حاملين تحذيراً إلى القائد العام. حينما تشكك القائد فى النهج الذى عليه أن يسلكه، أمر بدق ناقوس الخطر، فاستعرض أهل المدينة، وزود بالأسلحة من لا يملكون منهم سلاحاً. ثم اجتمع مع أعضاء المجلس، وعينوا كلاً من خوان نابارّو دى ألابا Juan Navarro de Álava وألونسو دى أورتيغا سالاثار Alonso de Ortega Salazar لقيادة قوات المشاة، كما اختاروا دييغو ماتيو خيريث Diego Mateo Jerez قائداً للفرسان -وكانوا جميعاً نواباً فى مجلس البلدية. فى أثناء عملية التنصيب، حضر أحد حملة الدروع من بيرا -وكان قد قطع مسافة تسعة فراسخ- ليخبرهم كيف أن المسلمين قد جاءوا صبيحة

(٥) لا يلتزم مارمول بكتابة اسم واحد للبرج. (المراجع)

يوم الأحد فى ما يربو على اثنى عشر رجلاً، والطريقة التى قصفوا بها المدينة بواسطة قطعتين من المدفعية، ويطالبهم بإغاثتهم.

اتفق الجميع على إرسال قوات إلى المدينة، حيث اجتمع فى الساحة التى يُطلَق عليها السيدة عذراء الغفران -ما بين الساعة الثانية والثالثة من مساء ذلك اليوم- تسعمائة واثنان وستون من جنود المشاة وثمانون فارسًا فى صفوف منتظمـــة على أكمل وجه. قبل تحرك الرجال من هناك، أرسل القائد العام رسائل تتضمن عدداً من المطالب وخطابات إحاطة إلى كل من مدينة مرسية، وبلدان ثيهيخين، وكاراباكا، وكالاسبارًا Calasparra، وموراتايًا، وإشبيلية، والحامة، وألوميريس دى ألماثارّون Alumbres de Almazarrón، ونبههم فيها إلى توجهه لإغاثة بيرا برفقة أهالى لورقة؛ كما طالبهم بالنيابة عن جلالة الملك أن يقوموا بالأمر ذاته. واصل القائد طريقه، واستمر فى مسيرته طوال تلك الليلة حتى دخل مدينة بيرا -التى تقع على مسافة تسعة فراسخ- مع بزوغ الفجر. لكن عندما بلغ المدينة علم أن المسلمين قد تم تنبيههم إلى النجدة القادمة فى أثناء انشغالهم باختراق الأسوار -حيث لم يبق لديهم ما يقصفوها به- فتخلوا عما يقومون به وتراجعوا إلى لاس كويباس؛ فاجتمع رجال لورقة مع رجال بيرا وأخذوا يلاحقونهم حتى وصلوا إلى نهر المنصورة. من هناك عادت قوات لورقة أدراجها، حيث بدا لهم أنه من غير الملائم المضى قدمًا مع ذلك العدد القليل من الرجال بينما الأعداء كثيرون للغاية، كما أنهم قد حققوا الهدف الذى جاءوا من أجله ألا وهو فك الحصار عن بيرا. وقد قابلوا فى طريق العودة القوات القادمة من مرسية لنجدة المدينة -وكان قوامها ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس.

اجتمع الحكام العموم والقادة للتشاور حول أفضلية ذهابهم جميعًا لملاحقة الأعداء، وعلى الرغم من أن البعض قد قال إنه ما من داع للقيام بذلك لأن بيرا لم تعد محاصرة، فقد كانت أغلب الأصوات مؤيدة لمطاردتهم لكى لا يحدثوا أضرارًا فى بقاع أخرى. بعد أن استقر القادة على ذلك الرأى، نشب بينهم خلاف على الشرف: حيث

قال جنود لورقة إن من حقهم أن يكونوا فى طليعة جيش مملكة غرناطة المتوجه لقتال الأعداء، وأن يحتلوا مؤخرة الجيش فى أثناء التراجع -بمقتضى ميزة قديمة للغاية كانوا قد حصلوا عليها؛ بينما أراد رجال مرسية أن يحظوا بذلك الشرف لكونهم يمثلون رأس المملكة وتلك المنطقة بأسرها؛ وكادوا يصلون إلى حمل السلاح حول ذلك الأمر. حينما شاهد الحكام العموم ما جرى عدلوا عن رأيهم، فجمع كل منهم رجاله وقفلوا عائدين إلى مدنهم. أما ابن أمية فقد رجع إلى بورشينا، ومنها توجه إلى القصور فى أندرش، ثم أرسل رجاله إلى المناطق التى يتبعونها.

الفصل التاسع

يتناول كيف قام بعض الجنود - الذين غادروا جيش ماركيز بلش دون أن تصدر إليهم أوامر بذلك- بجرح السيد دييغو فاخاردو حينما أراد إعادتهم إلى الجيش.

كان الضيق الذى يشعر به رجالنا إزاء بقائهم فى معسكر قلهرة دون الاضطلاع بأى مهمة كبيراً للغاية، حتى أنه ما كانت أى تحصينات لتقدر على حجزهم بالداخل؛ حتى أن القادة أنفسهم ربما ارتاحوا لحل تلك الفرق، لأن ذلك كان يمنحهم الفرصة للخروج من هناك بحجة إعادة تشكيلها من جديد؛ وهكذا صار هناك العديد من الألوية لم يبق بها عشرة أفراد. اتخذ ماركيز بلش إجراءاته فى هذا الصدد، وعندما تراءى له أن أعداد الرجال ليست كافية، وأن المؤن والأغذية ليست بالقدر الذى يحتاجه الجيش من أجل الدخول إلى البشرات من جديد، اضطرته الضرورة إلى البقاء فى موضعه واستهلاك ما يرسله إليه الأب بيرو لوبيث دى ميسا يوماً بعد يوم من وادى آش. وقد ألقى عليه بالكثير من اللوم لتقصيره، ولم يكن هو ممن لا يدركون الكيفية التى تدار بها الجيوش، ممن يغامرون بالأمر برمته على حساب سلطة ومكانة القادة العموم. فأخذ يرقب فى هم وكرب كبير الكيفية التى ينهار بها جيشه يوماً بعد الآخر، حتى أنه بالكاد تبقى لديه من يستطيع أن يعهد إليه بأمر الدوريات ونوبات الحراسة - التى كان يأمر بمضاعفتها فى كل ليلة، ليحول دون هجر الرجال للجيش لخوفهم من الأعداء.

تم تنبيه ماركيز بلش إلى أن ما يربو على أربعمائة من الجنود قد اتفقوا على الرحيل معًا، فأوكل مسئولية دوريات الحراسة، فى الليلة التى قيل له إن الجنود سيرحلون فيها، إلى السيد رودريغو دى بينابيديس -الذى كان قد حضر من وادى آش برفقة فرسان دوق أوسونا- وولده السيد دييغو فاخاردو -الذى يترأس لواء فرسان قرطبة التابع للسيد خيرونيمو دى قزمان. فى أثناء قيام السيد دييغو فاخاردو بتفقد المعسكر فى اتجاه غرف المبيت، برفقة السيد خيرونيمو دى قزمان والقائد كاستيّانوس Castellanos -نائب سلاح الفرسان-، أحسوا بخروج أشخاص من الناحية التى يوجد بها السيد رودريغو دى بينابيديس، وكان فى الجهة الشرقية من المكان. فرجع القائد كاستيّانوس لإحضار حملة الدروع القرطبيين -الذين كانوا قد ظلوا عند نقطة الحراسة- ثم توجه كلاهما إلى حيث توجد فرقة أخرى من الفرسان التابعين لأوسونا واستدعياهم، كما لبى النداء السيد رودريغو دى بينابيديس، ثم ذهب الجميع لإرجاع الجنود الفارين الذين أخذوا يتدافعون دون نظام، فأعادوا الكثيرين منهم إلى أماكن مبيتهم. بينما قام آخرون -ممن لم يرغبوا فى التخلى عن الطريق الذى سلكوه- بارتقاء تبة مرتفعة كائنة فى تلك الناحية الشرقية، وحثوا الخطى سعيًا لبلوغ أعلى بقاعها وأشدها وعورة، حيث لا يتسنى للخيول التمكن منهم.

اقتفى القادة آثارهم، حيث دنا منهم السيد دييغو فاخاردو، وقال لهم ألا يقدموا على أمر قبيح كالتخلى عن راياتهم، وأن يعودوا إلى مقار إقامتهم، وأنه يتعهد لهم شخصيًا بأن أحدًا لن يلحق بهم أذى أو ضيرًا جراء فرارهم من الجيش. بيد أنهم لم يرغبوا فى الاستماع إليه أو إجابته، وواصلوا مسيرتهم من دون صوت بعد إشعال فتائل البنادق. حينما شاهد السيد رودريغو ما حدث غضب كثيرًا، ونادى على السيد دييغو فاخاردو، من أجل أن يتعرف الجنود على صوته ويدب الخوف فى نفوسهم، فقال له: "هلم بنا، فلنسرع أيها السيد دييغو، وسوف نقطع عليهم الطريق عند ذاك السفح، ثم نهجم عليهم ليقع منهم من يقع، فهذه هى الطريقة التى ينبغى أن يعامل بها المحاربون الخونة". تسببت تلك الكلمات فى إشعال غضب الجنود العازمين على الفرار إلى حد جعلهم يجيبوا -من فرط حنقهم مما قيل- أن من تلفظ بتلك الكلمات ومن

برفقته هم الفرسان الخائنون والأشرار، وأن عليهم أن يتقـدموا صوبهم وسوف يرون ما سيؤول إليه الأمر. استشاط السيد رودريغو دى بينابيديس غضبًا لما أبداه الجنود من عدم احترام لشخصه، وعلى الرغم من أن عدد الفرسان الذين كانوا معًا ومتأهبين للهجوم لم يتجاوز أربعة عشر فارسًا، لأن الآخرين كانوا قد تخلفوا كثيراً عن الركب، فقد حملهم على الانقضاض على الفارين بمساعدة السيد دييغو فاخاردو، وهم يهتفون بحياة السيد رودريغو دى بينابيديس ويلقبونه بالسيد سانتياغو؛ عندما عبر من خلالهم من كانوا أعلى الربوة، بدا لهم أنهم يعاملونهم كالمسلمين، ففتحوا عليهم نيران بنادقهم.

كان السيد دييغو فاخاردو متجهًا إلى منتصف السفح، وكان بمحاذاته السيد خيرونيمو دى قزمان وأحد حملة الدروع القرطبيون، عندما أصابه الجنود فى ذلك الموضع بعيار نارى اخترق الترس الحديدى الفولاذى الذى كان يحمله إلى جانب المقبض؛ فقطع إصبعًا من يده اليسرى، كما عبرت الرصاصة إلى الجانب الأيمن من صدره واستقرت به. كان وقع الطلق النارى كبيرًا للغاية، حتى أن الفرس وقع على الأرض وألقى السيد دييغو فاخاردو من فوق رأسه فاقد للوعى؛ فترجل كل من السيد خيرونيمو دى قزمان وحامل الدروع عن فرسيهما، ورفعوه عن الأرض. كان السيد دييغو فاخاردو فارسًا مغوارًا، وكان ودودًا ويبدى مشاعر صداقة تجاه جنوده؛ فعندما ألفى إصابته خطيرة، طالب برؤية الترس لينظر إذا ما كانت الرصاصة قد اخترقته ، وحينما شاهد الثقب الذى أحدثته، أدرك أنهم أصابوه فى مقتل. فاستشعر داخله بحزن نبيل لم يجد له عزاءً، وقال إنه يحز فى نفسه أن يتسبب مسيحيون فى وصوله إلى ذلك الحال؛ ثم امتطى جواده فى أفضل وضع تسنى له وعاد إلى قلهرة. وقد قابله فى الطريق ماركيز بلش -الذى كان قد خرج مع سلاح الفرسان بأكمله بمجرد سماعه لناقوس الإنذار- فانتابه غضب عارم إبان رؤيته على تلك الشاكلة، حتى أنه لم يتمكن من التحدث إليه؛ ثم أصدر أوامره إلى أخيه السيد خوان فاخاردو والسيد رودريغو دى بينابيديس -وكان قد عاد هو أيضًا- من أجل أن يأمرا الفرسان والمشاة بقطع الطريق على أولئك الجنود من ثلاث أو أربع جهات، ثم رجع إلى الحصن.

غادر الجنود المعسكر، حيث لم يكن أى شىء يستطيع إبقاءهم؛ ومنذ تلك الحادثة فصاعداً رحل غيرهم الكثيرون، حتى أن ذلك الجيش الذى كان يضم اثنى عشر ألف جندى لم يبق به سوى ما يقل عن ثلاثة آلاف رجل -كان الجزء الغالب منهم ينتمى إلى وحدات الجيش الإسبانى الملقبة بفرق القرويين، بالإضافة إلى الوحدات التابعة للسيد بدرو دى باديًا، التى تحملت قدراً أكبر من المعاناة نظراً لكونهم أناسًا نظاميين قدامى وملزمون بالمكوث ضمن صفوف الجيش.

الفصل العاشر

يتناول الانتصار الذى حققه السيد غارثيا مانريكى على الناقوس فى وادى ليكرين.

كان الناقوس يجول وادى ليكرين برفقة ما يربو على ألف رجل، محدثين أضرارًا ضمن صفوف دوريات الحراسة التى كان تذهب من غرناطة إلى أورخيبا؛ حيث قضوا على المانتى جندى التابعين لكتيبة خوان دى تشابيس دى أوريبانا -التى ذكرناها أنفًا- ما بين الساقية ولانخارون، كما تسببوا فى أضرار أخرى عديدة فى الغوطة ونواحى الحامة. أراد المجلس أن يوقف وقاحة ذلك المارق، فأمر أعضاء المجلس باستدعاء بدرو دى بيلتشيس -الملقب بذى القدم الخشبية(*)، لأن إحدى قدميه كانت قد بُتِرَت من الركبة إلى أسفل واستعاض عنها بأخرى مصنوعة من الخشب- وكان رجلاً له دراية كبيرة بذلك الإقليم بأسره، كما كان يتسم بعلو الهمة. حينما سُئلَ عن الطريقة التى يمكن اتباعها لنصب فخ للناقوس، قال لهم أن يدعوه هو يذهب فى أثناء الليل إلى لاس ألبانيويلاس وسالاريس -حيث يحتشد أولئك المسلمون- وأن يمدوه بالسلاح، وسوف يعود من هناك فى الصباح؛ كما سيعمد إلى تعطيلهم حتى إخراجهم إلى النهر فى أثناء النهار، لأنه من المؤكد أنهم لن يخرجوا ليلاً. وعلى الفرسان أن يكونوا قد نصبوا لهم كمينًا فى الأراضى السهلية الكائنة ما بين بحيرة بادول ودوركال، وهو سيضعهم بين أيديهم على نحو سيتيح لهم قذفهم جميعًا بالرماح.

(*) انظر الكتاب الرابع، الفصل العاشر. (المترجمة)

بدت تلك النصيحة جيدة للسيد خوان دى أوستريا ولأعضاء المجلس، فأصدروا قراراً لاحقًا إلى السيد غارثيا مانريكى من أجل تهيئة رجال الغوطة للاضطلاع بتلك المهمة، فترك السيد بدرو دى بيلتشيس يتقدم فى البداية، ثم قام هو بالاختباء وإعداد كمين مع قوات الفرسان فى المكان الذى حدده له السيد بدرو. كان ذلك الأخير قد انطلق من أوتورا برفقة مائة فارس، وأربعمائة جندى من حملة البنادق -ممن كانوا يقيمون فى قرى الغوطة-، كما اصطحب معه تِيّو غونثاليث دى أغيلار يرافقه مائة رمّاح يتبعون إيثيخا -وكان قد جاء من غرناطة لذلك الغرض-، حيث توجه للاختباء فى بعض الحقول التى تقع أسفل منخفض نهر دوركال قبيل بزوغ الفجر. أما بدرو دى بيلتشيس فقد قصد بلدتى لاس ألبانيويلاس وسالاريس مباشرةً بصحبة جنود الفرق، الذين مكثوا ساكنين فى انتظار قدومه فاراً من الأعداء -على النحو الذى أخبرهم به. وقد نفذ ذلك الأمر فى حرصٍ بالغ، لدرجة أن دوريات المراقبة التى كان المسلمون قد أقاموها فى تلك الناحية لم تشعر بوجوده؛ فى الوقت الذى كانت فيه تلك الدوريات على مرمى بصر رجالنا. شرع بدرو دى بيلتشيس فى إطلاق نيران سلاحه مع طلوع ضوء النهار، فبدأ الجنود فى إرسال الإشارات الدخانية، وخرج عليه المسلمون وهم يطلقون صيحة عظيمة، فأبدى بعضاً من المقاومة، ثم أظهر للأعداء استشعاره للخوف، وشرع فى التقهقر بنظام إلى مكان الفخ.

كانت أعداد المسلمين آخذةً فى التزايد بشدة الساعة تلو الأخرى، حتى أنهم غطوا تلك الروابى؛ وقد ضيقوا الخناق كثيراً على بدرو دى بيلتشيس، فكان لدى اقترابه من بلوغ مكان القوات قد فقد اثنين من رجاله وجُرِحَ بعضهم. كما أضحى المسلمون على مسافة قريبة للغاية منه، مما اضطر السيد غارثيا دى مانريكى -عند رؤيته لمسلمين ومسيحيين قادمين من خلفه- أن يبادر إليهم دون أن ينتظر هبوط جميع القوات إلى المنطقة السهلية -على النحو المتفق عليه. قتل رجالنا ستة من الأتراك -كانوا فى طليعة الجيش- وما يربو على مائتى مسلم، فلاذ الناقوس بالفرار مع كل من بقى معه من الرجال، حيث لجأوا إلى الهوات والوهاد الموجودة عند النهر، وهى مواضع لم يتمكن الفرسان من مطاردتهم فيها؛ كما لم يستطع المشاة اللحاق بهم،

لأنهم لم يصلوا إليهم فى وقت يتيح لهم القيام بذلك. بيد أنه نال فيما بعد جزاءه على ما اقترفه من شرور، حيث أُلقِي القبض عليه، وأمر دوق أركوس بإعدامه فى غرناطة. ظفر رجالنا فى تلك المعركة بثلاث رايات، ورغبةً منهم فى إشاعة الفرحة فى المدينة، دخلوا إليها وهم يجرّون الرايات، كما قام حملة الدروع برفع رؤوس وأيدى المسلمين على أسنة الرماح.

أحس الجميع بالسرور الغامر فى غرناطة، إلا أن بيلتشيس المغوار شكا السيد غارثيا مانريكى، وقال إن خروج الفرسان لتدعيمه قبل الأوان لم يمكن الرجال من أن يطعنوا أولئك المسلمين جميعًا برماحهم فى ذلك اليوم. وحينما أجابه سيادة الرئيس بأن خروجه مبكرًا كان من أجل الحيلولة دون قتل المسلمين له، لكونه رجلاً عاجزًا وقد كان المسلمون خلفه على مسافة قريبة للغاية، رد عليه السيد بدرو فى غضب عارم على النحو التالى: "أنا أدرك جيداً يا سيدى أنه قام بفعلته من أجل ذلك الغرض، لكن ما الضير فى أن يقتلوا رجلاً مثلى، فى مقابل الإجهاز على ألفى مسلم طعنًا بالرماح؟" إنها إجابة رجل مخلص، كان يود التضحية بحياته فى مقابل خدمة الرب وجلالة الملك.

الفصل الحادى عشر

يتناول التدابير التى اتخذها جلالة الملك فى تلك الآونة واتخاذ القرارات المتعلقة بالحرب الوشيكة.

أقر جلالة الملك فى تلك الآونة أمرين على قدر كبير من الأهمية لتقصير أمد تلك الحرب، وذلك بناءً على الرأى الذى أبداه السيد خوان دى أوستريا وأعضاء المجلس القريبين من شخصه. كان أولهما الأمر الذى أصدره من أجل إنهاء عملية إخراج الموريسكيين الذين كانوا لا يزالون فى غرناطة، وإيداعهم فى أماكن تقع بالداخل؛ حيث راودت جلالته شكوك حول كونهم من يتولون إخبار ابن أمية بكل ما يقوم به المسيحيون، لأن له جواسيس بين صفوف الثوار. أما الأمر الثانى فكان القرار الذى أصدره جلالة الملك لإعلان أن تلك الحرب ستكون بالحديد والنار، وهو أمر لم يكن قد تم الإفصاح عنه حتى ذلك الوقت؛ حيث كان يتم تداول ذلك الشأن فى المجلس الأعلى لشئون الحرب تحت مسمى عقاب المتمردين فحسب، لأن القادة لم يرغبوا فى إضفاء صفة أخرى عليهم. كما أن السادة الموجودين بالمملكة كانوا مستاءين للغاية -وهم محقون تمامًا فى ذلك الشعور- من تلقيب ابن أمية بالملك، أو حتى الطاغية؛ وكانوا يرون أن أفضل اسم يليق به هو الخائن، لكونه قد خان ملكه وسيده الطبيعى داخل إطار مملكته ذاتها.

فى الوقت ذاته تم منح كل المسيحيين الذين يخدمون تحت إحدى الرايات أو فى أحد الألوية ضوءًا أخضر، كما سُمِحَ لهم أن يحتفظوا لأنفسهم بكافة المنقولات والأموال والحلى والماشية التى يستولون عليها من الأعداء؛ كذلك فقد تقرر ألا يدفعوا الخمس

أو أى ضريبة أخرى مفروضة على الأشخاص الذين يقومون بأسرهم. كان الداعى وراء كل تلك القرارات هو إسباغ النعم والعطايا على الجنود فى تلك المناسبة، من أجل تحفيز الرجال -الذين كانوا يشعرون بضيق شديد- على أن يخدموا فى الجيش طواعيةً، دون أن يستلزم الأمر اللجوء إلى طرق أكثر حزمًا؛ حيث كانت قرى أندلوثيا تشعر بالحرج إزاء الشكاوى، التى قصها على مسامعهم الجنود الذين أخذوا فى الفرار من جيش ماركيز بلش. رغبةً فى حمل الجنود على تقبل رواتبهم المعتادة على نحو أفضل، صدرت أوامر بزيادة مكافآتهم تبعًا للنسق المتبع عادةً مع المحاربين: فكان نصيب كل من الجنود حاملى الدروع وحملة البنادق أربع عملات فى كل شهر، بينما يحصل الجنود المسلحون بالرماح -الذى كانوا ينعتون بذوى الرماح الخشنة على ثلاثة عملات. لمّا نفدت الأموال لدى أصحاب الرتب الكنسية الرفيعة وأعضاء المجالس، وسادة الإقطاع - الذين صدرت إليهم الأوامر من أجل إعادة بناء الكتائب التى كانوا يخدمون تحت لوائها، وتزويدها بأكبر عدد ممكن من الجنود، حيث لم تعد تكفيهم الأموال العمومية أو الضرائب على الأغذية، التى سمح لهم المجلس الملكى بإنفاقها على المؤن، لكى يدفعوا رواتب الجنود - صدر قرار مفاده أن يتم دفع رواتب كل جنود المشاة، بدءًا من أول أيام شهر نوفمبر القادم- من الخزانة الملكية، على أن يكتفى أصحاب الرتب الكنسية الرفيعة وأعضاء المجالس وسادة الإقطاع بدفع رواتب الفرسان.

تم إعلان كل تلك القرارات في غرناطة فى منشور عام صدر فى التاسع عشر من شهر أكتوبر من عام ١٥٦٩. فى أعقاب ذلك تم إرسال نسخ معتمدة إلى سائر مدن وسادة إقطاع أندلوثيا ومملكة غرناطة، لكى يدرك الناس فى شتى الأرجاء المنح والعطايا التى أنعم بها جلالة الملك على المحاربين. لن نتناول الآن الفائدة التى أسفرت عنها تلك التدابير -وكانت عظيمة للغاية- بل سنتحدث عن الكيفية التى دفع بها ابن أمية ثمن الشرور والآثام التى اقترفها، وذلك على أيدى الثوار أنفسهم الذين حكموا عليه بالموت.

الفصل الثانى عشر

يتناول الكيفية التى قتل بها المسلمون ابن أمية، ونصّبوا بدلاً منه دييغو لوبيث ابن عبو.

فى أثناء تنفيذ تلك القرارات من جانبنا، كان دييغو الوزير -أحد أهالى البسيط التابعة لأوخيخار- ونفر من أقربائه من أعداء ابن أمية، يجولون الأراضى بعيداً عن أنظاره خوفًا من أن يأمر بقتلهم، فسعوا للإجهاز عليه بأيديهم من أجل التحرر من ذلك الخوف، وأيضًا لرغبتهم فى الثأر منه نظير الأفعال الوحشية التى ارتكبها فى حق مواطنى تلك الأراضى -خاصةً صهره ميغيل دى روخاس، ورفائيل دى أركوس، والكثيرين غيرهم من القادة والرجال البارزين فى تلك الطاعة وفى طاعة خوبيليس - حيث كان قد أمر بقتلهم، اتباعًا للمشورة التى أسداها إليه زعماء الثوار الجبليين المرافقون له. فى نهاية الأمر أخذوا بثأرهم منه وقتلوه بأيديهم على النحو الذى سنسوقه الآن. كان من بين الأمور التى اقترفها ابن أمية وأشعرت دييغو الوزير بالمهانة الشديدة، أن ابن أمية اصطحب من أوخيخار أرملة من بنات عمومة دييغو -كانت على علاقة بذلك الأخير- فاتخذها خليلةً له رغمًا عن إرادتها. كان هناك من ظن أن سبب حنق دييغو على ابن أمية لم يكن الغيرة، بل كان بداعى الشرف، لأنه سخط من اتخاذه إياها خليلةً له بينما كان من الممكن أن يتزوجها لكونها ذات نسب رفيع. بيد أن الزمن أثبت لنا فيما بعد خطأ ذلك الاعتقاد، حيث شاهدها أناس بعد مرور ست سنوات على تلك الحرب فى تطوان، وقد تزوجت من دييغو الوزير ذاته تبعًا لشريعتهم اللعينة. فى النهاية، وبصرف النظر عما كان، فقد سنحت فرصة جيدة لدييغو لتحقيق ما يطمح إليه،

لأن تلك المرأة المسلمة كانت تشغل منصب أمين السر الخاص بعدوه، وهي أداة الشرور التي يقترفها.

أصبح ابن أمية مكروهًا على نحو غريب، وبات موضعًا للشبهات في سائر بقاع البشرات، بعد أن تنامى إلى علم أهلها فحوى ما كتبه إلى السيد خوان دى أوستريا وإلى الشعيبى قائد أوخيخار؛ حيث أدركوا أنه يحاول عقد معاهدة مع المسيحيين من أجل تسليمهم الأراضي، وأنه لا يسعى سوى لتحقيق منفعته وتأمين سلامته الشخصية. ربما كانت تلك غايته حقًا، لكنه كان يتسم بالجبن الشديد، فضلاً عن أنه كان مثقلاً بما اقترفه من ذنوب، فلم يقدر على الوثوق فى أحد؛ حيث كان يعلم تمام العلم أن سبب نشوب الثورة سوف يُنسب إلى أشخاص قلائل، وأنه سيبيت من الضرورى معاقبة رأس الثورة. لمّا كان ابن أمية لا يثق ثقةً كبيرةً فى ذاته، فقد أحاط نفسه فى القصور التابعة لأندرش -حيث توجه فى أعقاب الغارة التى شنها على بيرا- بأصدقائه المقربين من الزعماء والقادة بالإضافة إلى ألفى مسلم، وكان هؤلاء يتقاسمون دوريات الحراسة فيما بينهم فى كل ليلة -كل مع من يتبعه من الرجال. كما أنهم لم يغفلون مهام الحراسة فى أثناء النهار، حيث أحكموا تحصين شوارع البلدة، على نحو لا يتيح لأحد الدخول إليها دون أن يروه أو يستشعروا وجوده. على ضوء عدم وثوق ابن أمية فى الأتراك، وسوء العلاقة التى تربطه معهم، أو ربما لعدم امتلاكه لأموال تمكنه من دفع رواتبهم أثناء عدم اضطلاعهم بأى مهمة؛ فقد أرسلهم إلى حدود أورخيبا تحت إمرة ابن عبو-لأنه كان يرغب فى إبعادهم عنه.

كان أولئك الرجال العاطلون جميعًا من القراصنة واللصوص والقتلة، وكانوا قد بلغوا حد اقتراف العديد من الأمور المهينة والفواحش: فانتهكوا حرمة النساء وسرقوا أملاك أهالى تلك الأراضى المسلمين. حينما ورد العديد من الشكاوى فى حقهم إلى ابن أمية، كتب إلى ابن عبو يستحثه على معالجة ذلك الوضع؛ فأجابه ذلك الأخير بأن الأتراك لا يسببون ضيرًا لأحد، وأنهم إذا ما أحدثوا أى قلاقل فسوف يتولى معاقبتهم. تم تبادل العديد من المكاتبات بين الجانبين فى ذلك الصدد، وكانت المرأة المسلمة

المرافقة لابن أمية تقوم بتنبيه دييغو الوزير -من لحظة إلى لحظة- بما يدور فى ذلك الشأن، وأيضاً بمشاعر الغضب التى تنتاب ابن أمية تجاه الأتراك. من هنا بدأ دييغو فى التخطيط لفعلته الخائنة، حيث ألّبهم عليه من أجل أن يأتوا للفتك به والقضاء عليه، على النسق الذى اتبعوه. فى تلك الآونة أراد ابن أمية التوجه لنشر الثورة بين الموريسكيين القاطنين فى مطريل ونهب البلدة، دون إطلاع ابن عبو على مسعاه، فأرسل يخبره بأن يجمع الأتراك، ويذهب برفقتهم إلى لاس ألبانيويلاس، وأنه سيصلهم كتاب آخر فى الطريق يحمل الأوامر حول ما ينبغى القيام به. كان لابد لتلك الرسائل من المرور بأوخيخار، وكانت المرأة المسلمة تنبه دييغو الوزير إلى الرسل الذين يتولون حملها، فخرج لانتظاره فى الطريق، ولاقاه فى نهايته بصحبة دييغو دى أركوس وغيره من أصدقائه، فأردوه قتيلاً، واستولوا على الرسالة التى كانت فى حوزته. وقام دييغو دى أركوس -الذى كان قد شغل منصب كاتب سر ابن أمية فى بعض الأحايين، ووقع عدداً من المكاتبات بدلاً منه- بتغيير فحوى الرسالة: فبدلاً من مطالبة ابن عبو باصطحاب الأتراك لاحقًا إلى مطريل، أمره بأن يأخذهم إلى ميثينا دى بومبارون، وفى أعقاب تسكينهم هناك -على نحو لا يتيح لهم الاختلاط مع أهل البلد، أو الرجال المائة الذين يرافقون دييغو الوزير- عليه أن يجردهم من أسلحتهم، ويأمر بنحرهم جميعاً؛ على أن يقوم بالأمر ذاته مع دييغو الوزير بعد أن يتمكن من الإيقاع به.

أرسل المتآمرون تلك الرسالة إلى ابن أمية فيما بعد مع شخص يتسم بالحذر، فما كان منه -بعد أن تعجب من ذلك الحدث الجلل- إلا أن أدرك أنه ما من شك فى صحة ما يُقال عن أن ابن أمية يسعى لعقد اتفاق يسلم بمقتضاه الأرض. وبينما هو متردد وغير قادر على حزم أمره، وصل إلى بابه دييغو الوزير -الذى كان قد قاس الطريق والوقت- برفقة الرجال المائة المصاحبين له؛ فألفاه مضطرباً؛ وقص الرجل على مسامعه كيف أن ابن أمية قد أرسله لكى يأمره بالتوجه لتنفيذ حكم الموت على الأتراك برفقة أولئك الرجال المائة، بيد أنه لا يود الزج بنفسه فى ذلك العمل الوحشى، لأن هؤلاء القوم هم أناس حضروا من أجل الوقوف إلى جوار المسلمين، وضحوا بأرواحهم لكى

يمنحوهم الحرية. بل إنه قد تعب من خدمة رجل ناكر للجميل، وقد تطوع لخدمة شخص لا ينتظر منه مقابل أفضل، لهذا فهو يعتزم الذهاب إليهم لتنبيههم إلى ذلك الأمر لكى يأخذوا حذرهم.

فى أثناء ترديد الرجل لتلك الكلمات، تصادف مرور حسين -القائد التركى- أمام الباب الذى كانا موجودين عنده. كان دييغو الوزير يود التحدث إليه، بيد أن ابن عبو تقدم أولاً لكى لا يسبقه إلى تحذيرهم -مخافة أن يقتله الأتراك- وربما كان السبب هو رغبته فى أن يفوز هو بذلك الفضل. نادى ابن عبو حسينًا وأخاه كراكاش Caracax، وعرض عليهما الرسالة. فما كان منهما إلا أن نبها إلى الأمر كلاً من: نبيل Nebel، وعلى الريس Alí arráez، ومحمد الريس Mahamete arráez، والحسن Hascen، وآخرين من القادة الأتراك. فهاجوا جميعًا وتباينت مشاعرهم بين الخوف والحنق، ثم شرعوا فى إطلاق التهديدات وتعبئة البنادق بالبارود، وقالوا إن هذا هو الجزاء الذى يستحقه من تركوا ديارهم ونساءهم وبنيهم من أجل القدوم إلى هنا لإغاثتهم؛ وبالكاد تمكن ابن عبو من تهدئتهم، فقال لهم أن يطمئنوا لأنه لن يُلحق بهم أحد أدنى أذى على الإطلاق. حينما شهد دييغو الوزير الغضب الذى انتاب الأتراك، ورأى أن مخططه يسير فى الطريق الصحيح، أراد أن يدلل على صدق الرواية؛ فأخرج عشبة تدعى الحشيش -كان الأتراك معتادين على تناولها فى وقت القتال، لأنها تذهب عقولهم وتشعرهم بالسعادة والميل إلى النعاس-؛ وقال إن ابن أميه قد أرسلها إليه لكى يقدمها إلى القادة فى أثناء تناولهم لوجبة العشاء، حتى يناموا ويتمكن رجاله من قتلهم فى تلك الليلة.

هنالك تم الاتفاق على أنه لا يستقيم أن يتولى ذاك الرجل القاسى -الذى يقتل كل الأناس النبلاء- الحكم، بل ينبغى أن يقتله الرجال وينصّبوا ملكًا غيره. قال دييغو الوزير بتولية إما حسين أو كاراكاش، بيد أنهما -على الرغم من موافقتهما على مسألة قتل ابن أمية- لم يريدا قبول اقتراحه؛ حيث قالا إن أولوج على لم يرسلهما من أجل أن يصيرا ملكين، بل لكى يدعما ملك الأندلسيين، وأن التصرف السديد هو وضع الحكم بين يدى أحد أهالى تلك الأرض، على أن يكون شخصًا ذا أصل نبيل يمكن الوثوق فى

سعيه لتحقيق صالح المسلمين، وذلك حتى تأتى الموافقة على شخصه من مملكة الجزائر. لاقى ذلك الرأى استحسان الجميع، فلم يضع الحاضرون الوقت، وقاموا بتنصيب ابن عبو ملكًا -رغما عن إرادته، وبعد إبدائه معارضةً شديدةً فى بداية الأمر. فى النهاية قبل ابن عبو المنصب والشرف الذى منحوه إياه، ووعدهم أن يبادر بالقضاء على ابن أمية، واعتقال سائر القادة والرجال البارزين ممن تربطه بهم علاقات صداقة، وألا يطلق سراحهم حتى ينصاعوا لأوامره فى خضوع تام. كان كاراكاش رجلاً أثمًا ، وكان قد تم نفيه من الجزائر -بمقتضى الجرائم العديدة التى كان قد اقترفها- إبان مجىء أخيه الحسين برفقة قوات الإغاثة التى جلبها الحبقى إلى البلاد. شرع كاراكاش فى وضع رغبات ابن عبو موضع التنفيذ، وكان أول ما قام به هو حمل كل الموجودين على الانصياع لمشيئة ابن عبو بوصفه حاكمًا عليهم لمدة ثلاثة أشهر، إلى أن تأتى الموافقة على توليته ذاك المنصب من الجزائر. ثم توجه فيما بعد إلى أندرش فى صحبة مائتين من الأتراك، ومثلهم من المسلمين، بالإضافة إلى كل من ابن عبو، ودييغو الوزير، ودييغو دى روخاس مع مائة رجل كانوا يرافقونه.

وصل كاراكاش إلى القصور بحلول منتصف الليل، وتمكن من طمأنة دوريات الحراسة عندما قال لهم إنه ومعه مجموعة من الأتراك قدموا من أجل التحدث مع الملك، فتركوهم يعبرون حتى وصلوا إلى مقر إقامة ابن أمية. حطم الرجال الأبواب ودلفوا إلى الداخل، فوجدوا ابن أمية قد خرج إلى أحد الأبواب شاهراً بندقيته فى يده، فاعتقلوه. قال البعض إنه كان نائمًا بين سيدتين، وإن إحداهما كانت ابنة عم دييغو الوزير. أنا لا أدرى كيفية حدوث ذلك، لأنه كان قد تم تنبيهه إلى ما يدور فى بداية الليل، كما كان لديه فرسان مسرجان ومعدان للرحيل؛ لكنه لم يفصح عن شىء لعدم رغبته فى التخلف عن إحدى السهرات الغنائية الراقصة التى قصدها الرجال على مدار فترة طويلة من الليل. وعندما تعب من الاحتفال واللهو توجه إلى مقر إقامته، حيث كان يوجد أربعة وعشرون جنديًا من حملة البنادق، وما يربو على ثلاثمائة مسلم من الحراس، وكانوا قد أحاطوا بالمكان لكى يباشروا التحرك قبيل بزوغ الفجر.

على الرغم من كل ما قيل، لم يحرك أحد ممن كانوا معه ساكنًا لإنقاذه عندما شاهدوه معتقلاً. فقام ابن عبو ودييغو الوزير بربط يديه بحبل رفيع، ثم عرضوا عليه الجرائم التى ارتكبها وأظهروا له الرسالة. حينما تعرف ابن أمية على التوقيع، قال لهم إن عدوه هو من مهر تلك الرسالة بتوقيعه، وإن تلك الرسالة لم تصدر عنه، واستحلفهم بمحمد وبالباب العالى ألا يدينوه، بل يبقوه أسيرًا لديهم، لأنهم ليسوا قضاة ولا يمتلكون الحق فى الحكم عليه، وأنه رجل مسلم صالح لم يعقد أى اتفاق مع المسيحيين؛ كما أمر باستدعاء الحبقى للتصديق على أقواله. بيد أن المنطق لم يكن له مكان بين أولئك الرجال الهمجيين والممتلئين بالجشع، فنهبوا منزله وأودعوه أحد القصور، وقد رافقه ابن عبو ودييغو الوزير لحراسته حتى لا يبادر بالفرار؛ وقبيل بزوغ الفجر لفا حول رقبته حبلاً رفيعًا وخنقاه، فكان كل واحد يشد فى اتجاه معاكس للآخر. هناك من قال إنه هو نفسه قام بوضع الحبل حول رقبته -لكى لا يستشعر ألمًا شديدًا- وأنه أصلح من هندامه، وغطى رأسه، ثم قال إنه قد تمكن من الثأر لنفسه، وإنه سوف يموت مسيحيًا. وهكذا وضع ذلك الشقى النهاية لحياته الفاسدة، ولوضعه الجديد والمهيب لدى كل من المسلمين والمسيحيين. أكد البعض أنهم قد سمعوه قبل ذلك الحادث بأيام عديدة يذكر كونه قلقًا بشأن حلم كان قد رآه على مدار ثلاث ليال متتالية، حيث رأى بعض الرجال الغرباء يلقون القبض عليه، ويقومون بتسليمه إلى آخرين يتولون خنقه بالخمار الخاص به؛ وأن ذلك هو الداعى وراء تخيله العديد من الأمور، وارتيابه فى الأتراك. وهو ما يمكن أن نستنتج منه أن النفس البشرية حينما تتناول الأشياء التى تبعث فيها الخوف، فإن الإمعان فى تأمل تلك الأمور، يجعلها تتنبأ فى المستقبل بجزء من المنحى الذى ستسلكه. وكما أن الأحداث التى نمر بها فى أثناء النهار تدفع روحنا لتخيل العديد من الوقائع عندما نحلم ليلاً؛ وأننا نشهد تحولها إلى واقع فيما بعد -نظرًا لتعاطف الطبيعة تجاه النفس البشرية-. هكذا فإن ذلك التعاطف ذاته يقوم فى المستقبل -مدفوعًا بتأثيرات روحانية- بتأكيد جزء مما تخشاه أنفسنا، ليس من منطلق الإيمان ولكن بدافع الخوف.

ما من شك في أن ابن أمية كان على دراية تامة بما كان من شأن الملوك المسلمين، الذين كان الأتراك قد قاموا فى البداية بتدعيمهم فى إفريقيا لكى يضعوهم على سدة الحكم، ثم قاموا هم أنفسهم لاحقًا بقتلهم، واستولوا على كل ما كانوا قد عاونوهم من أجل الحصول عليه؛ فكان يخشى من ذلك المنطلق أن يقوموا معه بالأمر ذاته. فلنرجع إلى روايتنا من جديد، حيث قام الرجال فى صبيحة اليوم التالى بإخراجه ميتًا، ودفنه فى أحد أماكن تجميع القمامة -احتقارًا له على ما اقترفه من آثام. ثم نهبوا منزله، واسترد دييغو الوزير ابنة عمه، كما فرق القادة الأتراك الآخرون النساء الأخريات فيما بينهم. وقد تم تولية الحكم والإمساك بزمام الأمور لابن عبو خلال فترة محددة قدرها ثلاثة أشهر، ثم أرسل كاراكاش تأييده لاختيار ابن عبو إلى حاكم الجزائر بوصفه ممثلاً عن الباب العالى. تولى تلك المهمة محمد بن داوود -الذى كنا قد أسلفنا ذكره فى بداية ذلك المؤلّف(*)- فذهب محملاً بهدية تتكون من أسرى مسيحيين وأشياء خاصة بتلك الأراضى. فى أعقاب ذلك بفترة وجيزة أرسل داوود إليه بالرد بينما مكث هو هناك، حيث لم يجسر على الرجوع إلى إسبانيا مرة أخرى.

منذ تلك الآونة تم منح الملحد مولاى عبد الله بن عبو لقب ملك الأندلسيين، فوضع على رايته كلمات تقول: "لا يمكننى أن أطلب أكثر من ذلك أو أن أرضى بما هو أقل". قام الأتراك باعتقال كافة القادة الذين لم يرغبوا فى الإذعان له، وحملوهم على الانصياع لأوامره، باستثناء ابن مكنون -ابن بويرتوكارّيرو- الذى انصرف إلى نهر المرية برفقة أربعمائة مسلم، وخيرونثيو -الذى كان موجودًا فى منطقة المنكب- وكان يدعى باسم آخر هو أرشيدونى Archidoni. قام ابن عبو بتنصيب خيرونيمو المالح قائدًا على أنهار المرية وبولوبوى والمنصورة، وجبلى بسطة وفيلابريس، وأراضى سند وادى آش؛ بينما تولى الشعيبى والحسين -قائد غويخار- زمام البقاع التى تقع فى جبل شلير، وأراضى بلش، والبشرات، بالإضافة إلى وادى وجبل غرناطة؛ كما منحهم

(*) انظر الجزء الأول: الكتاب الثالث، الفصل التاسع : والكتاب الرابع، الفصل الأول. (المترجمة)

امتيازات لكى يطيع أوامرهم كافة القادة الآخرين. فى غضون فترة وجيزة أرسل ابن عبو القائد التركى حسين بهدية ثانية إلى حاكم الجزائر، وإلى مفتى القسطنطينية؛ واستحثه لكى يتوسط فى شأنه لدى الباب العالى من المنطلق الدينى، من أجل أن يزوده بإمدادات من الرجال والأسلحة والذخائر، إلى حين وصول أسطوله الجبار. ثم قام بتنظيم قوات عادية قوامها أربعة آلاف من الرماة، وأمر أن يتولى ألف منهم تبادل الحراسة حول شخصه، بينما يتولى مائتان مهام الحراسة فى أثناء النهار، ويتم وضع دوريات مراقبة ليلاً خارج وداخل المكان الذى يوجد به، لكون هؤلاء الأشخاص موضع ثقته، وكان ينوى أن يحكم البلاد مستعيناً بمشورتهم.

الفصل الثالث عشر

يتناول الكيفية التي جمع بها ابن عبو رجال البشرات، وتوجهه معهم لحصار أورخيبا.

بعد أن مهد ابن عبو للأمور في البشرات، حشد أكبر عدد من الرجال تمكن من تجميعه، وذهب لاستطلاع الأمور في وادى ليكرين، كما جال في أنحاء لوبراس وألقى نظرة على شلوبانية؛ ثم توجه للإقامة عند مصب نهر مطريل، ومن هناك أصدر أوامره بالتحرك للهجوم على حصن أورخيبا. كان قد غادر ذلك المعقل في تلك الآونة ثمانون جنديًا من فرقة أنطونيو مورينو من أجل شن إحدى الغارات برفقة حامل الراية بيلتشيس، لكن أحد الجواسيس خدعهم، وساقهم إلى كمين نصبه لهم المسلمون، حيث كانوا في انتظارهم عند هاوية نيغرا Negra، وقتلوهم جميعًا. ظن القائد المسلم أنه لابد من بقاء عدد قليل من الجنود داخل الحصن، مما سيمكنه من احتلال ذلك الموضع؛ فانطلق من كوديار في يوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر يرافقه عشرة آلاف مقاتل، بينهم ستمائة من الأتراك ومسلمي شمال إفريقيا.

في اليوم التالي -السابق لعيد القديس سيمون خوداس San Simón Judas- وصلت قوات المسلمين على مقربة من حصننا في أثناء الليل، فنصب الرجال جميعًا كمينًا عند بعض الجادات الكائنة على مسافة تساوى مدى طلقتين ناريتين. في صباح يوم الأحد التالي، تقدم أربعة من المسلمين إلى الأمام كما لو كانوا يقومون بالصيد، لكي يسعوا في الخفاء وعن بعد لاستدراج فرقة من الجنود كانوا قد خرجوا على نحو معتاد لاستكشاف المكان ومحاولة تقصي أي أخبار. كان يتم تبديل المقاتلين الموجودين

فى ذلك المعقل كل شهر، لأن الجنود كانوا يتحاشون الذهاب إليه نظراً للعمل الشاق الذى يقومون به داخله؛ فكان السيد خوان دى أوستريا يرسل من غرناطة فى كل شهر الفرق التى ستمكث فى الحصن، وذلك برفقة الحراسة، كما كان الجنود الذين قضوا مدتهم يعودون إلى غرناطة مع الأمتعة الفارغة.

قبيل قتل المسلمين لحامل الراية بيلتشيس والجنود الثمانين، كان قد وصل على النسق الذى ذكرناه ست كتائب مشاة، وكان على رأس ثلاثة منها قادتها وهم: غاسبار مالدونادو، والسيد ألونسو دى أربيانو، وغاسبار ديلغادو Gaspar Delgado –ابن أخ أسقف جيّان، الذى كان يخدم فى الجيش على نفقة عمه مع ثلاثمائة من حملة البنادق–؛ أما الفرق الثلاث الأخرى التى كانت تحت إمرة: أنطونيو مورينو، وفرانثيسكو دى سالانتى Francisco de Salante، وألونسو دى أراوث Alonso de Arauz –قائد قوات إشبيلية–، فقد حضرت برفقة حاملى الرايات، لأن القادة كانوا قد مكثوا فى غرناطة لانشغالهم ببعض الأمور. كذلك فقد أتى لواءان من الفرسان، يتبع أحدهما خوان ألباريث دى بوهوركيس Juan Álvarez de Bohorques، أما الآخر فكان يقوده لورينثو دى ليبيا بدلاً من السيد لويس دى لا كويبا Luis de la Cueva. فى أعقاب تلك الواقعة المحزنة التى تعرض لها جنودنا، بات فرانثيسكو دى مولينا يبالغ فى توخى الحذر، فلم يكن يدع أحداً يغادر الحصن دون أن يتم أولاً استكشاف الأراضى المحيطة جيداً، لأنه كان يدرك أن المسلمين –المعجبين بأنفسهم بعد قتلهم لأولئك الجنود– لن يكفوا عن المجىء لتقصى أخباره ونصب الكمائن للجنود.

كانت إحدى الفرق قد خرجت فى ذلك اليوم لاستكشاف الأجواء فى المنطقة التى قصدها المسلمون الأربعة، فبادر أولئك بالفرار؛ وقام العريف المصاحب للجنود –وكان يدعى فرانثيسكو إيدالغو Francisco Hidalgo– بمطاردتهم دون أن يضع فى اعتباره ما يمكن أن يقابله فى الطريق. انهمك العريف فى المطاردة، حتى أنه ألفى نفسه فجأةً فى أحد الكمائن المنصوبة، فخرج إليه المسلمون من مسافة قريبة للغاية، وأحاطوا به من جميع الاتجاهات وأجهزوا عليه، وكان معه أربعة جنود آخرين يسيرون فى المقدمة؛

أما الباقون فقد استطاعوا التراجع حتى الحصن بعدما تعرضوا لمخاطر شديدة، وتنبيه فرانثيسكو دى مولينا إلى تلك الواقعة. فما كان من القائد إلا أن بعث بلورينثو دى ليبا، مع ستة من فرسانه وأربعة ممن يتبعون القائد خوان ألباريث دى بوهوركيس - كانوا يقيمون خارج الحصن-، من أجل معرفة كنه أولئك الرجال. فبلغ معهم الموضع الذى كان المسلمون مختبئين فيه، وحينما وجدهم قد تراجعوا بالغ فى التقدم إلى الأمام، حتى وصل إلى المكان الذى يوجد به ابن عبو مع حشود الرجال. أوقف القائد مسيرته حتى يستطلع الأمور جيداً، وكان سيهلك لأن العديد من الرماة هجموا عليه، فقتلوا فرس أحد حملة الدروع وجرحوا فرسه هو، مما اضطره إلى التراجع بعد مشقة بالغة، بينما الأعداء يلاحقونه على الدوام وهم يطلقون صيحات عظيمة، حتى دلف إلى داخل الحصن.

فى ذلك اليوم -الموافق الثامن والعشرين من شهر أكتوبر- حاصر المسلمون المكان الموجود به جنودنا من جميع الاتجاهات، واحتلوا كافة المواضع المشرفة عليها لكى يتمكنوا من رميهم بنيران البنادق. وقد شنوا عليهم هجوماً عنيفاً، وقتلوا بعض المسيحيين، كان من ضمنهم كريستوبال دى ثاياس Cristobal de Zayas -حامل راية السيد ألونسو دى أربيانو- وأحد حملة الدروع من كتيبة خوان ألباريث دى بوهوركيس كان يدعى بيسكادور Pescador. عندما شهد رجالنا التصميم الذى يتسم به الأعداء، وأدركوا أن أسوار الحصن مشيدة من الحجر المدقوق وأزواج من الأحجار شديدة الانخفاض، حتى أنها لم تكن تبلغ ارتفاع رجل فى بعض الأماكن، بادروا بإصلاحها بأنفسهم في حماس شديد. كان حملة البنادق قد وضعوا أسلحتهم عند النوافذ الضيقة والحواجز الوقائية، فقتلوا وجرحوا الكثيرين من جنودنا، وجعلوهم يفقدون الحمية التى أضفاها عليهم خوان ألباريث دى بوهوركيس ومن معه من حملة الدروع، الذين أخذوا يدافعون عن إحدى الفتحات التى لم يكن قد تم الانتهاء من تغطيتها -ما بين التكنة الخاصة بسالانتى وتلك الخاصة بالسيد ألونسو دى أربيانو- وكان من الممكن أن يدخل من خلالها جمع كبير من الرجال بسهولة بالغة. من المؤكد أن العناية الإلهية هى التى

تسببت فى الغفلة التى اتسم بها المسلمون فى ذلك اليوم، لأنهم لو كانوا هاجموا الحصن من ثلاثة أو أربع أماكن، لتمكنوا من اقتحامه فى سهولة، نظرًا لانخفاض الأسوار وسوء حالتها، إلى جانب وفرة أعدادهم.

حينما رأى ابن عبو المقاومة التى أظهرها جنودنا المسيحيون، قام بسحب رجاله، وقسمهم إلى أربع مجموعات، وحاصر الحصن من أربعة أماكن؛ ثم قطع المياه عن الساقية، وبدأ فى إصدار الأوامر لبدء المعركة. فى تلك الأثناء كان فرانثيسكو دى مولينا قد وزع مجموعات الجنود، فأوضح لكل مجموعة المكان الذى ينبغى عليها الدفاع عنه. فوضع فى الناحية الشمالية -التى يوجد بها الطريق المؤدى إلى غرناطة- فرقة أراوث برفقة حامل رايتها خيرونيمو كاساوس **Jerónimo Casaus**؛ وعلى الجانب الأيسر منه تمركز غاسبار مالدونادو مع كتيبته، بحيث أصبحت الكنيسة وراء ظهورهم. كما جعل فى منطقة النهر، التى تقع فى اتجاه الغرب، كتيبة سالانتى تحت إمرة حامل رايتها ألونسو بيلاثكيث دى بورتييو **Alonso Velázquez de Portillo**؛ أما الجهة الجنوبية، التى يخرج منها الطريق المفضى إلى مطريل، فتمركز بها السيد ألونسو دى أرييانو؛ بينما وقف غاسبار ديلغادو بين ذلك الأخير وقوات أراوث. ظل قادة سلاح الفرسان بارزين لكى يلبوا النداء على الأقدام أينما دعت الحاجة إلى وجودهم، وقد صاحبهم من أجل الغرض ذاته كل من: السيد أنطونيو إنريكيث، وغونثالو رودريغيل **Gonzalo Rodriguel**، والقائد ميدرانو **Medrano**، وفرانثيسكو خيمينيث **Francisco Jiménez**. وكانوا جميعًا جنودًا محنكين، وكانوا قد شغلوا بتوليهم مهامًا عسكرية، فبعث إليهم جلالة الملك يأمرهم بالذهاب من أجل الخدمة فى تلك الحرب، فقام السيد خوان دى أوستريا بإرسالهم فى تلك الأيام إلى أورخيبا.

كان أول ما قام به الأعداء هو احتلال المقر المقام به أحد الأفران، وكان قريبًا للغاية من الحصن، فلم يكن يفصله عن الأسوار سوى شارع واحد؛ ثم أمر بتجميع كمية كبيرة من أعواد الحطب، وإلقائها عبر النافذة فى منزل آخر كان يجمعه والحصن سور واحد، من أجل إشعال النار به وإحراقه. حيث كان رجالنا قد فتحوا نيران

بنادقهم على المسلمين من وراء بعض الحواجز الوقائية المنخفضة التى كانت موجودة فى ذلك البيت، وكان الأعداء يظنون أيضًا أن إحراقه سوف يتيح لهم الدخول إلى الحصن من تلك الناحية. بيد أن الأمور لم تسر على النحو المأمول، لأنهم قبل أن يتمكنوا من إلقاء كمية كافية من الحطب لتحقيق الغرض الذى يطمحون إلى تحقيقه، أمر قادتنا الجنود أن يلقوا عليهم كميات كبيرة من الحصر المشتعلة المغرقة فى الزيت فأحرقت الكمية عن آخرها؛ ثم قذفوهم بعدد كبير من القنابل عبر نوافذ مقر الفرن الذى يشغلونه، حتى بات من الضرورى أن يقوموا بإخلائه ويتراجعوا بعد أن منيوا بخسائر. لم يفلح ذلك الأمر فى إثناء الأعداء عن الاقتراب من الأسوار من جهات أخرى، ليشنوا هجمات عنيفة. قام المسلمون بإلقاء كميات هائلة من الأحجار على من بالكوات وخلف الحواجز الوقائية، حتى أنه بات من اللازم أن يقوم القائد خوان ألباريث بتدعيم تلك الناحية؛ فغطى الجنود بالتروس الدائرية والدروع الخاصة بحملة الدروع، وصد عنهم زخم الحجارة التى تنهال عليهم.

حينما أدرك المسلمون عدم جدوى تلك الطريقة، احتلوا بعض الروابى المحيطة التى تكشف محيط الحصن، ثم وضعوا بعض الرماة فى أحد أبراج الحمام العالية وداخل بعض المنازل المملوكة لآل أبو المست los Abulmestes، والكائنة ما بين قوات غاسبار مالدونادو وجنود السيد ألونسو دى أريبانو. قتل الرماة ثمانية من الفرسان ونفراً من الجنود وحملة الدروع ممن كانوا يمرون من ناحية إلى أخرى، فأضحى من الضرورى -من أجل درء تلك الأضرار- أن يتم عمل خنادق لكى يختبئ الجنود بها أثناء عبورهم الساحة. وكذلك فقد حفر المسلمون أربعة أنفاق تفضى إلى مواضع مختلفة: فأرادوا أن يمر النفق المتجه إلى مكان قوات غاسبار مالدونادو أسفل الكنيسة -التى كانوا يعتقدون أنها تحتوى على المؤن والذخائر- لكن القائد أقام سقالة عالية لكى يعطل العمال ويتمكن من اكتشاف الأعمال التى يقومون بها؛ كما بادر بإغاثة تلك الجبهة القائدان خوان ألباريث دى بوهوركيس ولورينثو دى ليبيا؛ وكذلك فقد لعبت الدروع دوراً مهمًا للغاية فى ذلك اليوم، لأن الجنود تمكنوا من خلالها من اتقاء وابل الحجارة التى كان يقذفهم بها من بالخارج.

وجّه المسلمون النفق الثانى صوب جبهة القائد ديلغادو، الذى كان قد واصل التقدم إلى الأمام، حتى أنه التقى بجنود الأعداء عند أحد الألغام التى كان رجالنا قد حفروها لتعطيل المسلمين؛ فاشتبك معهم، وقتل رجالنا بعض المسلمون فى الداخل، كما حملوهم على هجر مكانهم، واستولوا على المعدات التى كانوا يستخدموها فى عملية الحفر. أما النفقان الآخران -اللذان كانا يستهدفان ثكنة السيد ألونسو دى أريبيانو- فلم يكتمل تنفيذهما، لأن العمال اصطدموا فيما بعد بصخرة صلدة قطعت عليهم الطريق. عندئذ تخلى الأعداء عن العمل فى الخنادق، لأن الأتراك قد شهدوا فشل تلك الطريقة؛ فشرعوا فى إقامة سد من التراب المردوم والحجارة، وذلك فى أحد المنازل المجاورة لأحد الأسوار التى لم تتح للمسيحيين فرصة هدمها. استطاع المسلمون السيطرة من ذلك الموضع على أحد المخابئ المقامة بين جبهتى غاسبار مالدونادو وأراوث. وقد بادروا إلى القيام بذلك فى سرعة شديدة، حتى أن رجالنا لم يكن أمامهم حل سوى التراجع إلى الحائط الثانى للمخبأ، بعد أن تركوا الأول مهجوراً وبات المجال متسعاً للدخول إلى محيطه. أقام جنودنا هناك حواجز مضادة جديدة، لأن المسلمين ردموا الحواجز المقامة بالخارج، بعد أن أغرقوا الشارع بالحجارة والتراب والأغصان، على نحو ظنوا معه أنه سيتسنى لهم الدخول على الأقدام فوق الردم فى سهولة بالغة.

حينما رأى ابن عبو أن المسيحيين قد غادروا كاساماتا **Casamata**، واعتقد أنهم تخلوا كذلك عن السور واحتموا بالبرج والكنيسة، أمر بشن معركة عنيفة عليهم فى ذلك الموضع. توجهت صوب ذلك المكان حشود الأتراك وخيرة رجال المسلمين، وهاجموا الحصن فى يوم عيد القديسين، حيث ساروا على دقات الطبول وأنغام الناى، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية على طريقتهم المعهودة. اتسم هجوم الهمجيين بالسرعة الشديدة، مما مكن الكثيرين منهم من اقتحام الحصن قبل أن يتصدى لهم فرانثيسكو دى مولينا والقادة الآخرون الذين كانوا يتفقدون الثكنات. على الرغم من أن خيرونيمو دى كاساوس -حامل راية أراوث- الذى كان يتولى حراسة تلك الجبهة تصدى لهجوم الأعداء فى حمية شديدة، وكان يجول فى الميدان مغطى بالبارود ودماء الأعداء، فإنه لم يقو على الحيلولة دون دخولهم إلى المعقل، لأن جنودنا أخذوا فى التراجع.

عندئذ وصل فرانثيسكو دى مولينا، الذى قاوم الأعداء فى استبسال شديد، مسلحًا بدرع خفيف ذهبى وشاهرًا سيفه فى يده؛ وقد هب لنجدته كل من: خوان ألباريث دى بوهوركيس، ولورينثو دى ليبا، وحامل الراية بورتييو، كما رافقهم العديد من حملة الدروع والجنود البواسل؛ فتمكنوا من الثبات فى وجه الأعداء.

لعب فرانثيسكو دى مولينا فى ذلك اليوم دور القائد والجندى المغوار، حيث صال وجال من جهة إلى أخرى، يحمس هؤلاء ويتوعد أولئك المتهاونين؛ كما أخذ يقاتل بنفسه حيثما دعته الحاجة إلى ذلك، فتراجع إلى الوراء وطرد الأعداء إلى الخارج. كان أولئك قد رفعوا رايتين على السور -إحداهما من الحرير الأبيض، والثانية من حرير التفتاه القرمزى، وكانت تحمل هلالاً أبيضًا فى المنتصف، وقد طرزت حوافها بالذهب وزينت أطرافها باللؤلؤ؛ وقد سقط حاملا الراية المسلمان اللذان كانا يرفعانهما، فاستلبها منهما رجالنا، وقتلوا ما يزيد على مائتى موريسكى. سقط أحد حاملى الراية على مقربة منهما عند الجهة الخارجية من السور، وقد اخترق فخذيه عيار نارى؛ وعندما أبصر رجاله يبادرون إلى الفرار، أخذ يطلق صيحات عالية ويطالبهم بأن يعودوا إلى القتال، لأن موتهم كالرجال أفضل من فرارهم كالنساء. فلمّا رأى أنه ما من أحد يهب لنجدته، بدأ فى سبهم ونعتهم بالكلاب الجبناء؛ كما رجا المسيحيين أن يهبطوا من معقلهم ويجهزوا عليه، لأن موته على أيديهم أشرف بالنسبة إليه من العيش بين أناس خسيسة؛ فلم يمض وقت طويل حتى هبط جندى من الحصن وقطع رأسه.

فى أعقاب تلك الواقعة، أراد ابن عبو أن يشن هجومًا ثالثًا، فأمر بإيداع ما يربو على ألفى مسلم فى بعض المنازل التى لا سقف لها، والكائنة بمحاذاة سور الحصن؛ فبات الجنود محتمين بالحوائط من الأعيرة النارية التى أطلقها عليهم الجنود المسلحون بالبنادق، بينما شرعوا هم فى إمطارهم بوابل من الحجارة، وبالكاد تمكن الجنود من درئها عن أنفسهم لأنها كانت تسقط فوقهم؛ وقد تمكنوا من شج رأس فرانثيسكو دى مولينا فى أثناء وجوده بالقرب من بوابة غرناطة، وكان قد خلع الخوذة عن رأسه. شن المسلمون هجومًا عنيفًا بالحجارة فى ذلك اليوم، حتى أنهم هدموا جزءًا كبيرًا من

حوائط أحد المنازل التى كان يتخذها القائد ديلغادو مسكنًا له، لكونها من الجير والطوب؛ كما أحدثوا فتحات عديدة فى منازل أخرى، وكانوا سيتمكنون من الدخول عبرها إلى الحصن كما يحلو لهم، لو لم يسارع الجنود بإصلاحها فيما بعد. بادر القائد خوان ألباريث دى بوهوركيس بإغاثة تلك الجبهة، فعالج ذلك الأمر بالهجوم على الأعداء مستخدمًا نفس أسلحتهم؛ حيث حشد أكبر عدد تسنى له تجميعه من الجنود والغلمان، وأمرهم بأن يعاودوا قذف المنازل التى يشغلها الأعداء بالحجارة ذاتها التى ألقوها عليهم. لمّا كان المسلمون لا يمتلكون دروعًا أو خوذات تغطى رؤوسهم مثل المسيحيين، فقد اضطروا إلى الهرب وترك المنازل مهجورة. كانت تلك هى نهاية ذلك الهجوم، ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ المسلمون على إلقاء المزيد من الحجارة.

كان مسقط رأس ذلك القائد المدعو خوان ألباريث دى بوهوركيس هو بلدة بيّا مارتين، وهو أخ لقائد آخر يدعى السيد إيرناندو ألباريث دى بوهوركيس -كنت قد تحدثت عنه من قبل(*)- وكان يخدم مع كتيبة المشاة التابعة للبلدة ذاتها؛ وقد أمره السيد خوان دى أوستريا أن يحمل إلى أورخيبا دورية الحراسة الأخيرة المرافقة للمتاع، والتى كنا قد أتينا على ذكرها. لمّا كان القائد مريضًا ولابد من مداواته، فقد منح الإذن إبان بلوغه المعقل بأن يدع هناك حملة الدروع التابعين له، ويرجع إلى غرناطة. حينما علم القائد بوجود شكوك حول قيام المسلمين بمحاصرة الحصن، تراءى له أن ترك الرجال والعودة إلى غرناطة فعل غير مشرف، فقال لفرانثيسكو دى مولينا إنه لا يرغب فى الإفادة من الرخصة الممنوحة له، وإنه سيظل هناك ليلقى مصير الآخرين. أثنى القائد كثيرًا على تصرفه، لأن الجميع كان يتجنب المكوث فى ذلك المعقل؛ ومن المؤكد أن بقاءه كان مهمًا لكونه رجلاً مغوارًا يتمتع ببصيرة نافذة . حينما أدرك ابن عبو الأثر الضئيل الذى أحدثه رجاله خلال الغارات التى قاموا بها، وأن المحاصرين يبدون مقاومة أكبر فى كل مرة، قرر أن يفتح الحصن عن طريق تجويع من بداخله، حيث رأى أن احتلاله للمعابر التى لابد للدوريات من المرور بها عند قدومها من غرناطة،

(*) انظر الكتاب السادس، الفصل الثامن. (المترجمة)

سيعوزهم إلى المؤن بالتأكيد؛ وأن قطع مياه النهر والساقية عنهم، سيجعلهم يموتون عطشًا حينما تنفد المياه المخزونة لديهم فى الخنادق. كانت المياه قد جفت بالفعل فى البداية، لكن فيما بعد نجح الرجال فى تخزين الماء؛ ثم ملأوا الخنادق عن أخرها قبيل وصول جيش الأعداء بقليل، وبات الجنود يشربون منها، على الرغم من أنهم كانوا يواجهون مخاطر عند الخروج لجلبها، حتى حفر الرجال نفقًا فى الداخل لكى يتمكن الرجال من بلوغ المياه من أسفل؛ ولم يعد لديهم سوى ما يكفى ليومين.

على جانب آخر، قام فرانثيسكو دى مولينا فى تلك الليلة -حينما تراجع المسلمون فى أعقاب الهجوم- بتوجيه أوامره إلى جنديين يعرفان اللغة العربية وعلى دراية واسعة بتلك الأراضى، لكى يغادرا الحصن ويطلقا نيران أسلحتهما فى أنحاء مختلفة من أجل تضليل العدو، حتى تسنح لهم الفرصة فى التقدم إلى الأمام خفيةً؛ وكان القائد قد أرسلهم إلى غرناطة برسالة إلى السيد خوان دى أوستريا. ورغبةً منه فى الحيلولة دون إدراك المسلمين حساسية الموقف -تحسبًا لاعتقالهم للجنديين فى الطريق- ذكر فى الرسالة أنه ما من داع لاستشعار فخامته بالألم، لأنه على الرغم من كثرة أعداد المسلمين، فإن هناك ألف وخمسمائة جندى فى حوزته، ولديه كميات من المؤن والذخيرة تكفى لفترة تزيد عن الشهر؛ لذا فإن المعقل فى أمان، حتى أنه يفكر فى الخروج للهجوم على الأعداء. من جهة أخرى، فقد أمر السيد فرانثيسكو الجنديين أن يخبرا السيد خوان شفهيًا مدى النقص الذى يعانوه فى كل من المؤن والذخائر، ومدى أهمية الذهاب لإغاثتهم على وجه السرعة. قام هذان الجنديان بالمهمة فى براعة شديدة، حيث عبرا فى وسط معسكر المسلمين، وتوجها إلى غرناطة وأعلما السيد خوان دى أوستريا بأحوال الحصار. لكن رجالنا كانوا قد تلقوا تحذيرات أخرى عن طريق الجواسيس، وكان دوق سيسا يتهيأ للذهاب والاضطلاع بمهمة الإنقاذ، على النحو الذى سنسوقه فى الفصل التالى.

الفصل الرابع عشر

يتناول خروج دوق سيسا لإنقاذ أورخيبا، وكيفية فك ابن عبو للحصار، وتوجهه للدفاع عن المعبر.

حينما عُرِفَ في غرناطة المأزق الذي تمر به مدينة أورخيبا، غادر دوق سيسا -الذي كان مكلفًا بمهمة إنقاذها- المدينة مع من بها من المحاربين، إضافة إلى أولئك الموجودين في بقاع الغوطة، متوجهًا إلى بادول، ثم مضى من هناك إلى الساقية. كان السيد بدرو دي بارغاس Pedro de Vargas عريفًا على جنود المشاة، وكان عريف الفرسان السيد ميغيل دي ليون Miguel de León؛ بينما ترأس السلاحين السيد خيرونيمو ثباتا Jerónimo Zapata، وروي دياث دي مندوثا Ruy Díaz de Mendoza. مكثت القوات في ذلك المعسكر لأيام عديدة، وذلك في انتظار قدوم رجال أندلوثيا، الذين كان السيد خوان دي أوستريا قد أرسل في طلبهم في تلك الآونة لكي يصطحبوا باقي الموريسكيين الذين ظلوا في غرناطة إلى الداخل؛ كما أن القائد أُصيب بمرض النقرس، وأراد السيد خوان دي أوستريا أن يرسل لويس كيخادا بدلاً منه، لكنه تحسن فيما بعد. عندما تم تنبيه ابن عبو إلى أن الدوق قد كوّن جيشًا، وأنه في طريقه لنجدة ذلك المعقل، قرر -في ثامن أيام الحصار المفروض- أن يرفعه، ويخرج لانتظار الدوق عند معبر لانخارون، لكي يحول دون عبوره إياه، ويشتبك معه في معركة تقف التضاريس فيها إلى جانب القائد المسلم. قام ابن عبو بفك الحصار وسحب الجيش في منتصف الليل ودون إحداث أي ضوضاء، لكي لا يستشعر المحاصرون رحيلهم. لم يدرك من بداخل الحصن ما جرى حتى صباح اليوم التالي، عندما رأى فرانثيسكو دي مولينا أنه ليس

هناك من كائن حي يدب في المعسكر، أمر بفتح أحد الأبواب المفضية إلى خنادق المياه، ثم بعث بحامل الراية بورتييو لاستطلاع الأجواء في خنادق الأعداء.

مثّل ذلك الأمر حدثًا سعيدًا بالنسبة للمحاصرين، الذين أخذوا يشكرون الرب على تحررهم من ذلك الخطر. وقد خرج الرجال إلى معسكر مبيت المسلمين، فعثروا به على كميات وفيرة من اللحوم ومواد غذائية أخرى -كان الأعداء قد خلفوها وراءهم نظرًا لتعجلهم الرحيل من المكان- فاستولى رجالنا على كل ما وجدوه؛ كما قاموا بتحويل الساقية إلى الخنادق وملأوها عن آخرها بالماء، لأنهم -كما أسلفنا- كانوا يعانون من نقص شديد في المياه. في أعقاب ذلك أرسل فرانثيسكو دي مولينا جنديين آخرين بتحذير ثان إلى السيد خوان دي أوستريا، يعلمه فيه برفع العدو للحصار، واعتقاده في أنهم سيتوجهون ليعسكروا عند جبال لانخارون، لكي يحولوا دون مرور قوات الإغاثة من المعبر. في تلك الأثناء عاد الجنديان -اللذان كانا قد توجها في البداية إلى غرناطة- إلى أورخيبا ومعهم رد السيد خوان دي أوستريا، الذي قال فيه إنه قد تباحث في الأمر مع أعضاء المجلس، وإنهم خلصوا إلى إخلاء المعقل ومغادرة الحصن، لكنه لم يصدر القرار حتى يستطلع رأيه أولاً؛ بناءً على ذلك، فإن على القائد أن يرسل إليه الرد؛ وإذا كان يرى أنه من الملائم الدفـاع عن الحصن، فليبعث إليه بالأسباب التي تدعوه لذلك، ويذكر عدد الرجال والأمور الأخرى التي سوف تلزمه من أجل القيام بتلك المهمة.

أجابه السيد فرانثيسكو دي مولينا بقوله إن الإبقاء على ذلك الحصن يخدم الرب، ويأتي في صالح جلالة الملك للعديد من الأسباب، وعلى وجه الخصوص فإن الروح المعنوية للمسلمين سوف ترتفع لدى مشاهدتهم لتراجع القوات؛ وبمقتضى ذلك فإنه يتراءى له ضرورة إنقاذ الحصن على وجه السرعة، وإبان وصول القوات، سيضحي من الممكن بقاء العدد الذي يراه كافيًا من أجل الذود عن المكان. بيد أن ذلك الرأي لم يتم إقراره، بل اتفق المجلس على هجر الحصن، وسحب من بداخله من الرجال، لكونه موضعًا تفوق تكلفته فوائده، وليس مناسبًا للعدو. في أعقاب ذلك تلقى القائد رسالةً أخرى من

دوق سيسا مع الجنديين الآخرين، يقول فيها إنه قد بلغ موضع الساقية في طريقه لإنقاذ ذلك المحل، وإنه ينتظر مجيء قوات المدن ليواصل تقدمه؛ كما طالب القائد بإخباره عما في حوزته من طعام، وأن يقول له كم سيكفيه من الوقت، وهو سيتوجه لاصطحابه من هناك في اليوم والساعة اللذين يحددهما، على النحو المتفق عليه. وقد نبهه إلى أن يكون متأهباً للانسحاب في عجالة، لأنه لن يتقدم إلى منطقة أبعد من هاوية لانخارون. أجابه القائد بأن لديه خبزاً يكفيه لخمسة أيام، وبأنه سيكون مستعداً في أي وقت تستدعيه ضرورة الحال. بيد أنه يوجد داخل الحصن ثمانون جندياً جرحى ومرضى، وبعض النساء والأطفال، وكميات أخرى كبيرة من الذخائر، وإنه لابد من بلوغ لانخارون ببعض الأمتعة الفارغة من أجل حملها. الآن سوف ندع فرانثيسكو مولينا في أورخيبا، ونأتي على ذكر ما حدث خلال تلك الأيام لجيش دوق سيسا في الساقية.

الفصل الخامس عشر

يتناول الكيفية التى اشتبك بها ابن عبو مع جيشنا فى المنطقة الواقعة ما بين الساقية ولا نخارون، للحيلولة دون عبوره إلى أورخيبا من أجل إنقاذها.

لجأ ابن عبو إلى الكثير من الحيل لتأخير دوق سيسا، والحيلولة دون مروره إلى أورخيبا من أجل إنقاذ الحصن، لأنه كان يعى أن المسيحيين الموجودين بالداخل لابد سيهلكون عما قريب، نظرًا لما يعانوه من نقص فى المؤن. فقام باستعراضات ضخمة لمن فى حوزته من الرجال على تلك الروابى، كما زيّف رسائل تضخّم من قدرات المسلمين؛ إلى جانب ذلك فقد نشر أخبار الظفر بحصن أورخيبا، وموت كل المسيحيين جوعًا. تولى الموريسكيون المعاهدون إذاعة تلك الأنباء فى غرناطة، بينما نشرها الجواسيس فى الريف، وكان هؤلاء وأولئك يقومون بتلك المهمة فى الخفاء، حتى بات دوق سيسا قلقًا للغاية، ولم يعد قادرًا على حزم أمره سواءً بالمضى قدمًا مع من برفقته من الرجال، أو انتظار القوات القادمة من المدن -والتى لم تكن قد وصلت بعد. بينما دوق سيسا يتوخى الحذر، ويرغب فى اعتقال أى مسلم يستقى منه الأخبار، اقترح عليه بدرو دى بيلتشيس -ذو القدم الخشبية(*)- أن يأتيه بغايته إذا ما منحه الإذن للقيام بذلك. كان الدوق يود إعفاءه من تلك المهمة، نظرًا لكون هذا الأخير رجلاً معاقًا، كما أن تلك الليلة كانت مظلمة وباتت الأجواء عاصفة مصحوبة بالرياح والأمطار؛ بيد أن بيلتشيس

(*) انظر الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل التاسع؛ والجزء الثانى، الكتاب السابع، الفصل الخامس. (المترجمة)

المغوار ألح عليه فى الطلب، إلى جانب أن الحاجة كانت ملحة للغاية، مما جعل من الضرورى السماح له بما يريد، حيث أرسل معه فرانثيسكو دى أروبّو -أحد قادة الفرق الأخرين- ورجاله.

خرج القائدان مع بداية الليل، وقاما مع الجنود بنصب كمين فى أحد المسالك الجبلية التى كان لهما دراية بها؛ وبحلول الصباح كانا قد قبضا على ستة من المسلمين كانوا قادمين من المكان الموجود به ابن عبو حاملين رسائل منه. رجع الجمع إلى المعسكر مع صيدهم، وقد أراد دوق سيسا أن يعرف فحوى تلك الرسائل التى كانت مكتوبة باللغة العربية، حيث لم يكن لديه من يجيد قراءتها، فبعث إلى الرئيس يطالبه بإرسال شخص يترجم الرسائل إلى الإسبانية لكى يفسرها. بعث إليه الرئيس(*) بالأب كاستيّو، فترجمهما إلى اللغة الإسبانية؛ وقد كانت -وفقًا لما أنبأنا به لاحقًا- موجهةً إلى قادة كل من: غيخار، ولاس ألبانيويلاس، وغواخاراس. حيث أخبرهم ابن عبو أنه من المناسب أن يحشدوا كل من فى جبهاتهم من رجال ويتوجهوا للانضمام إليه من أجل تحقيق صالح المسلمين، لأنه يود أن يدخل فى معركة مع دوق سيسا -الموجود فى الساقية بغرض العبور إلى أورخيبا وإغاثتها-، وأنهم سيتمكنون من إلحاق الهزيمة به من دون شك. كما أنه تخلى عن مواصلة فرض حصار على أورخيبا لكى يحضر إلى المعبر وينتظرهم عنده، وأن المسيحيين الموجودين فى الحصن باتوا فى حالة أشرفوا فيها على الهلاك عما قريب.

أضاف ابن عبو أمرًا آخر فى الرسالة الموجهة إلى الشعيبى قائد غيبيخار، حيث طالبه أن يخرج فى ستة آلاف من رجاله، ويقوم باحتلال الهاوية الكائنة ما بين الساقية ولانخارون فى أعقاب مرور دوق سيسا، وهكذا سيقطع الطريق على دوريات الإمدادات التى لابد لها من الذهاب محملة بالمؤن؛ وأن ذلك الأمر وحده سيكفى للقضاء على الدوق. من جهة أخرى، فقد أذاع فى غرناطة أن الحصن قد فُقِدَ بالفعل، وأن المسيحيين قد

(*) يقصد رئيس محكمة غرناطة بدرو دى ديثا. (المترجمة)

هلكوا جميعًا، من أجل أن يأمر السيد خوان دى أوستريا دوق سيسا بسحب الجيش، أو على الأقل إبقائه فى ذلك المعسكر. وأنه قد برع فى القيام بذلك، حتى أنه –رغبةً منه فى إضفاء المزيد من المصداقية إلى الخبر– قد أرسل إلى أحد الموريسكيين لكى يبوح به إلى أحد رجال الدين على هيئة اعتراف؛ وفى أثناء وجود السيد خوان دى أوستريا بمفرده فى مقر إقامته فى أحد الأيام، دنا منه أحد القساوسة، وأخبره بالأمر على أنه نبأ أكيد. أسفرت تلك الأخبار عن توخى الأمير الباسل الحذر الشديد، فأمر لاحقًا بانعقاد المجلس، وعرض على أعضائه ما ذكره القسيس، لبحث التدابير التى يمكن اتخاذها فى ذلك الصدد. بعد الأخذ والرد فى تلك المسألة، لم يتمكن أحد من إقناع السيد بدرو دى ديثا بصحة الخبر، حيث قال للحاضرين إن الأمر لابد وأن يكون حيلة من جانب المسلمين؛ وإنه لو كان صحيحًا، من المستحيل ألا يأتى شخص ما ليقص عليهم ما رآه. وقد ازداد يقينه حول كذب الأنباء حينما أخبره السيد خوان دى أوستريا عمن نقل إليه الخبر والكيفية التى وصل بها إلى مسامعه.

عندئذ أمر دوق سيسا بالإسراع فى نجدة الحصن، فقرر المضى قدمًا؛ وأرسل بدرو دى بيلتشيس مع ثمانمائة من المشاة لاستكشاف الهاوية التى تقطع الطريق المستقيم والمنخفض لتفضى إلى تابلاتى. حيث أمره أن يسلك أعلى نقطة به، وأن يتمركز فى البقعة التى يعرج فيها طريق لانخارون على مقربة من أورخيبا، وأن يرسل من هناك من ينبه فرانثيسكو دى مولينا إلى وجوده. كما أرسل فى أعقابه ثمانمائة رجل بغية تأمينه، ثم تبعهم هو مع باقى الجيش –ليصير العدد أكثر قليلاً من أربعة آلاف راجل وثلاثمائة فارس–، لأنه تشكك فى ضرورة احتياج هؤلاء وأولئك إلى قوات دعم. بعد أن شهد الأعداء تحرك رجالنا، قسموا جنودهم إلى قسمين: فتوجه الحسين والدالى –القائدان التركيان– مع الدفعة الأولى لملاقاة قائدنا، بينما ظل الجزء الآخر فى المؤخرة. تأخر الدالى فى الظهور، وانشغل بالمناوشات فى غفلة من جنود الطليعة قبيل لحاقه بهم، وفى تلك الأثناء انفصل ستمائة جندى عن الركب: حيث توجه ثلاثمائة منهم مع الراندانى للهجوم من المؤخرة، بينما ذهب ثلاثمائة آخرون خفيةً مع الماكوش

للتمركز إلى جوار طريق الساقية، فى منطقة يطلق عليها قلعة الحجر Calat el Haxar. كان ذلك أمراً لم نشهده من قبل سوى مرات قليلة، وهو ينم عن كون الرجال على دراية واسعة بتلك الأراضى، مما مكنهم من الابتعاد عن الجيش مع الجنود فى أثناء الاشتباكات، ونصب كمين دون أن يشعر بهم من فى الطليعة أو القادمون من الخلف.

مع حلول المساء، هجم الدالى بمن معه من الجنود لتدعيم كفة المسلمين فى المناوشات الدائرة بالقرب من المياه عند الهاوية، وذلك على نحو حمل رجالنا على التراجع نحو الجهة التى ظنوا أن الدوق سيجىء منها؛ عندئذ كشف الراندانى الغطاء عن جبهته، وبادر بالانقضاض عليهم. حينما ألفى الجنود أنفسهم بعيدين عن الغوث، وشاهدوا ظلمة الليل تطبق عليهم، تراجعوا إلى مرتفع قريب من الهاوية، بغرض التوقف هناك والتحصن بالمكان. وكانوا سيمسون فى مأمن –على الرغم من تعرضهم لبعض الأضرار– لولا قلة صبر القائد بيريا Perea– المولود ببلدة أوكانيا Ocaña؛ لأنه عندما رأى القوات الآتية لتدعيم المسلمين هجر الربوة، وقد لاحقه الأعداء فى أثناء هبوطه إلى أسفل المنخفض، فمات أثناء محاربته إياهم مع جزء من الجنود الذين كانوا برفقته. مضى الجنود الآخرون إلى الأمام، والمسلمون يطاردونهم، حتى بلغوا موضع معسكر الدوق بعد حلول الليل. فخرج لإنقاذهم ثم عاود التراجع مرة أخرى، لكنه وقع فى الفخ الثانى الذى أعده الماكوش؛ فحينما ألفى نفسه على أحد الجوانب محاصراً من قبل الأعداء، وعلى الجانب الآخر غير متأكد من الطريق وتضاريس الأرض، ومع انتشار الفوضى وحلول الظلام، ومشاعر الخوف التى انتابت الرجال الذين بدأوا فى الفرار، بات من الضرورى أن يتصدى للعدو بنفسه. ظل مع الدوق كل من: السيد غابرييل دى كوردوبا، والسيد لويس دى كوردوبا، والسيد لويس دى كاردونا، وباغان دى أوريا Pagan de Oria –شقيق خوان أندريا دى أوريا Juan Andrea de Oria– بالإضافة إلى فرسان وقادة آخرين، اضطر العديد منهم إلى الترجل عن فرسه والانضمام إلى المشاة، ثم تراجعوا إلى المعسكر مع انتصاف الليل تقريباً على أفضل نحو تسنى لهم.

كانت هناك بعض الآراء التى تقول إن المسلمين لو هجموا على الوتيرة التى ساروا عليها فى بداية المعركة لجابه رجالنا جميعًا خطر الهلاك. بيد أن الضرر قد وقع عندما تحرك بدرو دى بيلتشيس فى توقيت لم يتح للدوق الوصول إلى أورخيبا أو إنقاذ الحصن خلال ساعات اليوم، لأن الوقت لم يكن كافيًا؛ حيث خُدِعَ الكثيرون فى غرناطة بذلك الأمر، ولم يحسنوا تقدير الوقت اللازم على ضوء وعورة التضاريس وعمق الهاوية وضيق الطرق. مات أربعمائة مسيحى، وكان هناك العديد من الجرحى، كما فقدوا أسلحة كثيرة -وفقًا لما أخبرنا به المسلمون. لكن تبعًا لرواية رجالنا -وكنا قد تعلمنا خلال تلك الحرب كيفية إخفاء الخسائر والتغطية عليها- فقد كان عدد القتلى ستين فقط، بينما حدثت فى صفوف الأعداء خسائر ليست بالقليلة، وتحققت للماركيز شهرة واسعة. لأنه مع حلول الليل، ورغم تشككه فى الرجال، وضغط الأعداء عليه، وعجز جسده، فقد امتلك الحرية لتنفيذ ما عرض القيام به على كل الجبهات، والعزيمة لإبعاد الأعداء، والإرادة لتوقيف الجنود الذين كانوا قد بدأوا فى الهرب.

الفصل السادس عشر

يتناول مغادرة فرانثيسكو دى مولينا لحصن أورخيبا، وتراجعه مع القوات كلها إلى مطريل، وعودة دوق سيسا إلى غرناطة.

فى تلك الآونة كانت الأيام الخمسة التى حددها دوق سيسا فى رسالته التى بعث بها إلى فرانثيسكو دى مولينا يخبره أنه سيحضر لإنقاذه قد انقضت، ومضت بعدها خمسة أيام أخرى. عندها تراءى لقائد الحصن أنه من الممكن تبرير مغادرته للحصن بمفرده، لأن قدوم الدوق لم يكن الغرض منه سوى إخراجه من هناك. فى ذات اليوم الذى تلقى فيه الرسالة الأخيرة، خرج لاستكشاف الموضع الذى كان جيش الأعداء يحتله؛ وقد اصطحب معه القائدين: خوان ألباريث دى بوهوركيس، وغاسبار مالدونادو، بالإضافة إلى ثلاثة من قادة الفرسان. مر الركب بالعديد من دوريات المراقبة التى كان المسلمون قد شكلوها فى تلك الروابى، حتى بلغ قلعة لانخارون –الكائنة على بعد فرسخين من أورخيبا– وكان بها فرقة من الجنود تابعة له، فسألهم عما لديهم من أنباء حول جيش المسلمين، وأجابوه أنهم لا يعلمون شيئًا ما عدا أن سائر تلك الروابى تكتسى بجنودهم.

عندما فطن القائد إلى أن هدفهم لا يعدو الدفاع عن مدخل البلدة، رجع إلى الحصن من طريق آخر، حيث قام خلال تلك الليلة ذاتها بتسخين مقابض الرماح الطويلة وتلك ذات رأس البلطة، والطرق بها بشدة على بعض قطع المدفعية الثقيلة الموجودة داخل الحصن لتكسيرها إلى قطع صغيرة، ثم دفن الأجزاء المعدنية وأشياء أخرى ثقيلة الوزن كان يدرك أنه لن يتمكن من حملها. كما حمل المرضى والجرحى وعدداً من النساء على

الخيول الخاصة بحملة الدروع على أفضل نحو تسنى له، واتخذ صليبًا عليه صورة المسيح المصلوب رايةً لهم، وقام الجميع بتمجيد الرب فى توقير شديد. أخرج القائد الركب بأسره من الحصن في الساعة العاشرة مساءً، دون إحداث ضجة بالصناديق التى كانت في حوزتهم، وسلك بهم طريق مطريل حاملاً معه الصلبان والأيقونات والزخارف الخاصة بالكنيسة. وقد خلّف أربعة جنود فى برج الناقوس، آمرًا إياهم أن يواصلوا قرع الأجراس على النحو المعتاد، إلى ان يغادر الركب الجهة الأخرى من النهر؛ وأن يتراجعوا عندما يشاهدون إشارةً معينةً سيرسلها إليهم باستخدام النيران. وهكذا سلكوا جميعًا طريق مطريل، دون أن يوجد من يعيقهم عن ذلك، حتى وصلوا إليها في صباح اليوم التالى؛ وهكذا تم إعفاء دوق سيسا من الدخـول إلى أورخيبا فى ذلك الوقت، وبات الأعداء وقد خُدعوا.

إبان وصول رجالنا على مشارف مطريل، استشعر أهل البلدة الخوف الشديد، لأنهم ظنوا أنهم من المسلمين؛ ففى ذات الليلة التى غادر فيها رجالنا أورخيبا، جاء أعداء الرب للإغارة على منازل حى الموريسكيين، واصطحبوا الأهالى معهم إلى الجبال -بعضهم كرهًا والبعض الآخر طواعيةً-؛ كما اشتبكوا لفترة من الزمن مع المسيحيين، الذين كانوا قد سدوا رؤوس الشوارع، وأودعوا النساء والأطفال فى الكنيسة التى كانت مشيدة على هيئة حصن. لكن عندما عرفوا أنهم جنود أورخيبا لم يسعهم السرور لرؤيتهم إياهم وقد تحرروا من الحصار الذى فرض عليهم، وأيضًا لأنهم أدركوا أن البلدة ستضحى مؤمنة. ولمّا كان المواطنون يعانون نقصًا فى المؤن، ولم يكن الضيوف الجدد يحملون سوى القليل منها، فقد اتفقوا على الخروج للبحث عما يأكلونه فى بقاع لوبراس وباتابرا **Patabra** ومولبيثار. فى اليوم التالى خرج القائد خوان ألباريث دى بوهوركيس مع الفرسان وبعض حملة البنادق من المشاة، فأغار على تلك المواضع ونهبها، وجمع الكثير من المواد الغذائية وكميات من التبن -وكان ذلك هو أكثر ما تحتاج إليه الخيول.

عندما تنامى إلى علم السيد خوان دى أوستريا ما قام به فرانثيسكو دى مولينا، أثنى كثيرًا على حسن اجتهاده، وأرسل يأمره بالبقاء فى مطريل قائدًا على من بها من المقاتلين، فشن العديد من الغارات الناجحة على المسلمين؛ وحينما بات لزامًا التوجه إلى نهر المنصورة، أمره السيد خوان أن يضطلع بتلك المهمة. من جهة أخرى تراءى لدوق سيسا -الذى كان لا يزال موجودًا مع جيشه فى الساقية- أنه ما من داع لمواصلة التقدم، فعرج على لاس ألبانيويلاس، التى كان قد احتشد بها عدد غفير من الموريسكيين، فدمر ما بها من مواضع، وترك هناك ألفًا من الرجال كمعقل للمسيحيين، ثم ذهب إلى غرناطة. كان أول من نبه رجالنا إلى مغادرة فرانثيسكو دى مولينا أورخيبا، وسحبه لرجاله إلى مطريل، هو أحد الأسرى المسيحيين، الذى ذهب إلى قلهرّة وأخبر ماركيز بلش كيف أن المسلمين قد انتابتهم الفرحة الغامرة فى سائر أرجاء البشرات، وأن سرورهم كان عارمًا حتى أن سيده غفل عنه، فسنحت له الفرصة وتمكن من الهرب؛ فأرسله الماركيز بتلك الأنباء إلى جلالة الملك وإلى السيد خوان دى أوستريا.

الفصل السابع عشر

يتناول كيفية نشر خيرونيمو المالح للثورة فى بلدة غاليرا، وذهاب قوات غويسكار لإنقاذ بعض الجنود الذين تحصنوا داخل الكنيسة.

كانت بلدة غاليرا تتبع السيد إنريكى إنريكيث -أحد مواطنى بسطة. كان أهالى البلدة -وكلهم من الموريسكيين- قد طالبوه بإمدادهم بمن يدافع عنهم إذا ما وفد إليهم بعض المسلمين بهدف إشاعة الثورة بينهم، فأرسل إليهم ستين من حملة البنادق مع خادمه ألمارتا Almarta؛ وقد عهد إليه بعدم إعاشة الجنود فى منازل البلدة، لكى لا يثقل على الموريسكيين، فأقام معهم فى الكنيسة، التى تقع خارج البلدة من جهة الشمال، فى أحد السهول الكائنة ما بين البيوت والنهر. كان برج الناقوس حصينًا، فباتت الدوريات تتم فيه ليلاً ونهارًا. فى تلك الآونة كان خيرونيمو المالح يجول منطقة نهر المنصورة وبسطة مع جيش آخر من المسلمين، ويطالب سائر قرى الموريسكيين بالثورة، ويلحق بالمسيحيين أكبر قدر ممكن من الضرر. كما كان يصطحب معه قائدًا تركيًا يدعى كارباخال[٦] ومائتين من حملة البنادق من بلاد المغرب.

أراد المالح أن ينشر الثورة فى غاليرا، لكى يتمكن من تجميع قوات أورثى وكاستييخا هناك، لكونه موضعًا حصينًا -سوف نأتى على ذكره فيما بعد- بيد أن المواطنين اعتذروا منه مبررين ذلك بعدم قدرتهم على اعتناق الثورة فى أثناء وجود

(٦) هذا الاسم غريب بين الأتراك، ونظن إما أنه خطأ مطبعى من الناشر وإما أنه سهو من المؤلف. على أية حال فالقائد التركى يدعى كاراباكا فى مصادر أخرى. (المراجع)

المارتا هناك مع أولئك الجنود. من أجل إزاحته من الطريق، دلف إلى المدينة سراً مائتا مسلم مسلحين بغية قتله؛ وهو أمر كان يمكن تنفيذه بسهولة شديدة، لثقة ألمارتا فى عدم خيانة الأهالى له؛ حيث كان الجنود يصعدون -اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة- إلى الميدان فى كل صباح لشراء المؤن دون توخى الحذر، كما لو كانوا هم والأهالى نسيجاً واحداً. رتب أعداء الرب أن يختبئوا فى صباح أحد الأيام على مسافات متتالية فى الشوارع والمنازل، وأن يقتلوا الجنود فى أثناء صعودهم إلى البلدة، ثم يذهبوا إلى الكنيسة ويشعلوا فيها النيران من أجل إحراق من بداخلها. بينما هم على عزمهم هذا فى الليلة السابقة لليوم الذى كانوا سينفذون مخططهم فيه، تراءى لرجل مسلم يدعى أنريكى Anrique من أهالى بورتشينا، كان ضمن الجنود الذين بعث بهم المالح لقتل المسيحيين -وكان من الثوار الجبليين قبل تمرد البلدة- أن هذه فرصة جيدة سنحت له من أجل أن ينال الصفح والغفران على ما اقترفه من ذنوب؛ فعزم الرجل على الدخول إلى الكنيسة، وتحذير المسيحيين من المكيدة التى دبرها لهم الثوار. فألقى بنفسه من نافذة أحد المنازل، على الرغم من أن دورية الحراسة ورجال آخرون من رفاقه المسلمين أحسوا به، فخرجوا فى أثره وشجوا رأسه؛ لكنه سبقهم فى الركض ودخل إلى الكنيسة مع المسيحيين، وباح لهم بالخطة المزمعة لقتلهم، وبأنه يوجد مائتا مسلم فى البلدة قد أرسلهم المالح، وأنه واحد منهم.

شكره ألمارتا كثيراً على تحذيره إياهم، وبادر بإرسال جنديين إلى غويسكار -التى تقع على مسافة فرسخ واحد من المكان- مطالباً القائد فرانثيسكو دى بيا بيثيين Francisco de Villa Pecellin، أحد فرسان رهبانية قلعة رباح العسكرية، وحاكم تلك البلدة التى تنتمى إلى دوق ألبا؛ وعالم اللاهوت أويرتا Huerta -القائد العام-؛ أن يغيثوه عن طريق إرسال بعض القوات حتى يتمكن من التراجع مع الجنود القلائل الموجودين برفقته. فما كان منهما إلا أن حشدا المشاة والفرسان فى عجلة شديدة وتوجها إلى غاليرا، لكن إبان بلوغها ألفوا البلدة تموج بالثورة، وكان المسلمون قد حاصروا الكنيسة وهجموا عليها، وأضرموا فيها النيران من أجل إحراقها. وعندما وصل جنود

غويسكار إلى الكنيسة، تقهقهر الثوار نحو البلدة مع قيامهم ببعض المناوشات، مما أتاح للمحاصرين إمكانية الخروج من بعض النوافذ المطلة على النهر بعد بذل مجهود يوازى الخطر الذى تعرضوا له. تراجعت القوات دون الاضطلاع بأى مهمة أخرى ما عدا تأمين عودة أولئك الجنود، فعادوا فى ذات اليوم إلى غويسكار، مخلفين وراءهم البلدة تموج بالثورة ورافعة للسلاح؛ حيث كان هدفهم هو الرجوع للإغارة عليها مرة أخرى بعد الاستعداد بشكل أفضل.

الفصل الثامن عشر

يتناول عودة قوات غويسكار لشن هجوم آخر على غاليرا، والهزيمة التى لحقت بهم، والتى أرادوا على أثرها قتل الموريسكيين الذين يعيشون فى غويسكار.

فى أعقاب عودة رجالنا إلى غويسكار، تفاقم الغضب الشعبى إزاء مشاهدة ما أظهره أهالى غاليرا من وقاحة لدى قيامهم بالثورة، والمخطط الذى رسمه أولئك المسلمون - المغرقون فى الترف الذى أنعمه عليهم مولاهم- من أجل القضاء على الجنود الذين كانوا قد أُرسلوا إليهم من أجل الذود عنهم؛ حتى أن المواطنين فى غمار الحنق الذى شعروا به تجاه الأمة الموريسكية بأسرها، كانوا يرغبون فى قتل الموريسكيين الذين يعيشون بينهم، وسلب ممتلكاتهم، قبل أن ينقلبوا عليهم فى حادث مماثل. فى أثناء انتشار ذلك اللغط بين العامة، قام الحاكم بيثيين بحشد كافة الموريسكيين فى مخازن الغلال، وهى عبارة عن مخازن بالغة الضخامة تودع بها الحبوب التى يحصِّلها دوق ألبا على سبيل ريع الأراضى، مخلفًا الموريسكيات بمفردهن فى البيوت. عندئذ هدأ غضب الشعب الذى منى نفسه بنهب بلدة غاليرا، وأرسلوا فى طلب جيرانهم من أهالى بلدة بولتيرويلا Bolteruela حتى يرافقوهم، ثم توجهت الجموع فيما بعد للاضطلاع بتلك المهمة؛ وإن قاموا بذلك على نحو فوضوى وغير منظم، بوصفهم رجالاً يتصفون بقدر أقل من الغيرة وقدر أكبر من الجشع عما يجب أن يتسم به من يتصدون لتلك المهمة.

إبان وصول الأهالي إلى غاليرا، شرعوا في الاشتباك مع المسلمين على مدار يومين من دون أن يحرزوا أي شيء أو يرغبوا في التراجع. وحينما شهدوا المقاومة التي أبدتها البلدة، وفطنوا إلى أنه من الضروري وجود أعداد أكبر من القوات، أرسلوا يطلبون الغوث من السيد أنطونيو دي لونا، الذي كان قائداً على مقاتلي بسطة -كما ذكرنا آنفاً. في تلك الآونة اعتقدت السيدة خوانا فاخاردو -وكانت أرملة السيد إنريكي إنريكيث- أنه من الممكن تهدئة الأهالي، لكي لا يقوموا بنهب الممتلكات؛ فبعثت رسالة مع بعض الفرسان إلى صهرها السيد أنطونيو إنريكيث، من أجل أن يخاطب المواطنين بالنيابة عنها، ويقنعهم بترك الأسلحة والخضوع لما تقتضيه خدمة جلالة الملك. وصل السيد أنطونيو إلى البلدة في أثناء إغارة أهالي غويسكار عليها، فدنا من المنازل، ونادى على بعض الأهالي الذين يعرفهم بأسمائهم؛ فقال لهم إنه دهش كثيراً لدى معرفته بالحدث الجلل الذي قام به أناس كانوا أوفياء على الدوام، وإنه يدرك جيداً أنهم ليسوا هم منفذوا ذلك الجرم، وإنما المسلمون الغرباء الذين أجبروهم على الثورة قسراً، كما أنه في يديهم معالجة الأمر، لأنه أتى من أجل الدفاع عنهم، والحيلولة دون أن يلحق بهم المحاربون أي أذى؛ لذا فإنه يرجوهم -حفاظاً على أرواحهم- أن يعودوا إلى الدخول في خدمة جلالة الملك، وهو سيتولى إعادة قوات غويسكار إلى ديارهم دون أن يتسببوا في المزيد من الأضرار.

سخر الهمجيون الجاهلون من تلك الكلمات، حيث خدعتهم ثقتهم في أنفسهم، والثقة التي أكسبهم إياها من يرافقونهم من الأتراك. فلم يفسحوا لمن تمت مناداتهم مجالاً للحديث، وأجاب بعض المسلمين الهمجيين بأن تلك البلدة لا تعرف سوى الله ومحمد؛ وأنه على السيد أنطونيو أن ينصرف من هناك، لكي لا يفتحوا عليه نيران البنادق. تسبب ذلك الرد في إشعال غضب رجالنا المسيحيين على نحو جعلهم يرغبون بعد ذلك في قتال البلدة خلافاً لمشيئة قادتهم، الذين كان السيد أنطونيو قد طالبهم كثيراً بألا يوافقوا على ذلك، حيث أخبرهم بأنه سيتولى هو حمل الموريسكيين على الاستسلام،

لأن من أجابوه على ذلك النحو ليسوا هم الأهالى وإنما المسلمون الغرباء. فى نهاية الأمر تمكن الغضب بشدة من عامة الشعب -الذين لم يتعودوا الامتثال للأوامر- فتوجهوا مباشرةً باتجاه المنازل دون أن ينتظروا صدور أوامر إليهم؛ وأخذوا يصعدون الشوارع جماعةً تلو الأخرى، حتى وصلوا على مقربة من الميدان وهم يطلقون صيحات إعلان النصر. كان بمقدور الأهالى الظفر بالبلدة لو كان باقى الرجال قد تبعوهم، ولم يكن فتحها سيتكلف الدماء التى أريقت لاحقًا فى سبيل تحقيقه؛ بيد أن القلق انتاب القادة، لأنهم لم يكونوا يدرون الكيفية التى سيُنظَر بها إلى ذلك التصرف، فمنعوا الناس من الصعود، فأصبح من الضرورى تراجع رجالنا البواسل، ومع تراجعهم قتل المسلمون الكثيرين منهم، كما جرحوا أعدادًا كبيرةً؛ لكنّ المسلمين لم يغادروا البلدة، حيث قنعوا بما حققوه وبدفاعهم عن ديارهم. لأنهم كانوا يخشون سلاح الفرسان.

رجع المسيحيون إلى غويسكار بعد أن منيوا بهزيمة ساحقة، وكانوا يشعرون بغضب عارم تجاه الأمة الموريسكية بأسرها، حتى أنهم -بمجرد دخولهم إلى البلدة- شرعوا فى الصياح -رجالاً ونساءً- متسائلين عن سبب الإبقاء على حياة الموريسكيين الذين قام بيثيين بتجميعهم فى منازل الغلال؛ حيث أن أقاربهم من موريسكيى غاليرا قد قتلوا وجرحوا العديد من المسيحيين، كما أنهم نادوا باسم محمد وديانته فى البلاد؛ وأضافوا إلى ذلك أن من يتولى الذود عنهم هو أسوأ منهم. وفى غمار ثورة الغضب الشعبى، هرع البعض للهجوم على مخازن الغلال، بينما توجه البعض الآخر لنهب المنازل فى الأحياء السكنية التابعة للمسلمين. أما من قصدوا المخازن فقد أضرموا النيران فى الأبواب لأنهم ألفوها مغلقة، كما بادروا بإطلاق نيران البنادق على كوات السراديب -التى كان المسلمون يختبئون بها- وقتلوا بعضًا منهم. كان من الممكن أن يجهز الأهالى عليهم جميعًا، لولا أن النيران التى أضرت بالمسلمين كانت هى ذاتها التى وفرت لهم الحماية: لأن ألسنة اللهب تزايدت إلى حد بعيد نظرًا للغلال التى كانت موجودة هناك، فباتت الأبواب والمداخل والأسقف مشتعلة، وقد أصبحت جميعًا كاللهب المستعر، فلم يجرؤ أى مسيحى على الدخول؛ وهكذا مكث المسلمون فى الأقبية.

فى تلك الآونة، كان من توجهوا لنهب المنازل -الكائنة فى الأحياء السكنية التابعة للمسلمين- قد استولوا على كل ما عثروا عليه بها دون أن يوجد من يعترض طريقهم. فلمّا بادر من هجموا على المخازن باللحاق بهم على أثر أنباء الغنائم، أُتيحت الفرصة لبيثيين لكى ينقذ الموريسكيين؛ فأمر بإطفاء الحرائق، وأخرجهم من الأقبية، ثم حملهم إلى منزل السـيـد رودريغـو دى بالبـوا Rodrigo de Balboa، ومن هناك إلى بعض السراديب الموجودة فى الحصن. وقد ظلوا محبوسين هناك خلال أيام طويلة خوفًا من تعرضهم للقتل، حتى أمر جلالة الملك بإيداعهم فى بلدان تقع فى الداخل مع باقى موريسكيى تلك المملكة.

الفصل التاسع عشر

يتناول الكيفية التى تم بها تنبيه ماركيز بلش إلى أن خيرونيمو المالح يتوجه لمحاصرة حصن أوريا، والكيفية التى تمت بها إغاثته.

حينما تنامى إلى علم خيرونيمو المالح أن هناك العديد من الأناس عديمى النفع[٧] فى حصن أوريا، وأن من به يعانون نقصًا فى المؤن والذخائر، راودته رغبة شديدة فى احتلاله، لكونه موضعًا مهمًا للغاية من أجل تطلعاته. وفى أثناء انشغاله بتجميع الرجال واتخاذ تدابير أخرى تم تنبيه ماركيز بلش إلى الأمر، فما كان منه إلا أن أرسل كتابًا من موضعه فى قلهرّة إلى السيد خوان إنريكيث فى بسطة، وإلى السيد خوان دى أرو فى بلش البلانكو. وقد أمرهما الماركيز أن يحاولا -كل من جانبه- تزويد ذلك الحصن باحتياجاته، وأن يخرجا من بداخله من النساء والأشخاص عديمى الفائدة، ويصحباهم إلى بلدان بلش ومواضع أخرى بعيدًا عن الخطر؛ وإذا كان القائد باليننتين دى كيروس -صاحب الحصن- يلزمه المزيد من الرجال فليتركا له من فى حوزتهما.

غادر السيد خوان إنريكيث بسطة يرافقه مائة وأربعون فارسًا، فتفقد جيش الأعداء -الذى كان يعسكر على مقربة من كانييس-، وأرسل شقيقه السيد أنطونيو إلى أوريا مع مائة وعشرين من حملة الدروع، وعدد مماثل من أجولة الطحين على ظهور الخيل، بينما بقى هو من باب الحيلة مع العشرين جنديًا الآخرين، فاستطاع بهذه الطريقة أن يخدع المسلمين وينفذ مهمة الإنقاذ. كما أرسل السيد خوان دى أرو

(٧) يقصد المرضى والجرحى وكبار السن والأطفال والنساء. (المراجع)

أربعين فارسًا من بلش البلانكو يرافقهم مائة من حملة البنادق، فدخلوا إلى أوريا فى أول أيام شهر نوفمبر ومعهم مؤن وذخائر، وحاملين أمرًا بسحب من فى الحصن من غير المقاتلين. عندما تم تنبيه المالح إلى ذلك الأمر، اصطحب معه مائتين من المسلمين المنتقين، وتوجه فى عجلة شديدة ليقطع عليهم أحد المعابر -الذى يتعين عليهم سلوكه للرجوع إلى بلش البلانكو. كان من الممكن أن يلحق المسلمون بهم أضرارًا بالغةً لولا الحرص الذى أظهره قسيس يدعى مارتين دى فالثيس Martín de Falces -كان يعمل كاهنًا قانونيًا لبلش البلانكو- وكان مغرمًا بصيد الحيوانات البرية، وكان ذلك هو السبب الذى جعله على دراية واسعة بكل تلك الأراضى. أراد القسيس التوجه لاستكشاف المكان قبيل مغادرة قوات أوريا، فعثر على الكمين الذى كان المسلمون قد نصبوه، فرجع بعدها إلى القادة وطالبهم بألا ينطلقوا من هناك إلى أن يتم إخلاء المعبر، أو أن يخرجوا فى أعداد أكبر من الرجال بحيث يتمكنوا من المرور.

أسفر ذلك التحذير عن توقف الركب، وقد أعقبه قيام القادة بالكتابة إلى السيد خوان دى آرو يخبرونه بالحالة التى بلغوها، لكى يأمرهم بالنهج الذى يسلكونه لتأمين الطريق. فبعث السيد خوان برسالة إلى المجلس البلدى لمدينة لورقة ليحيطه علمًا بالخطر الذى يجابهه أولئك المسيحيون، وليطالبهم بإغاثتهم بأكبر عدد يتاح لهم من الرجال؛ لأن إنقاذ ذلك الحصن، وإخلاء المعبر الذى احتله العدو وقَطَعَه على الركب هو أمر نافع للغاية. كانت الرسالة قد صيغت بقدر من الاستعلاء، مما أغضب نواب البلدية حينما رأوا الألفاظ التى استخدمت فى كتابتها؛ فأجابوا السيد خوان بأنهم سيراسلون مرسية وكاراباكا أولاً من أجل حشد عدد من الرجال، وعند مجىء القوات فسوف يقومون بمهمة الإنقاذ. فيما بعد أدرك من فى بلش البلانكو السبب الذى حال دون أن يهب أهالى لورقة لنجدة الجنود، فقامت بنات ماركيز بلش -وهن فتيات يتسمن بالفطنة ويتمتعن بقدر وافر من الشجاعة- بكتابة رسائل من جانبهن إلى المدينة وإلى عالم اللاهوت إوبرتا سارمينتو -الحاكم العام- يعرضن عليهم الحاجة الملحة المتمثلة فى إنقاذ الرجال الموجودين فى أوريا، ويحثوهم على الاضطلاع بتلك المهمة على وجه السرعة.

أدى ذلك الأمر إلى انعقاد مجلس البلدية مرةً أخرى. على الرغم من أن ثمانية من أعضائه الاثنى عشر كانوا يؤيدون الرأى القائل بتأجيل تلك المسألة حتى مجيء قوات مرسية وكاراباكا، فإن الحاكم العام لم يشأ الأخذ برأى الأغلبية، بل ارتأى تلبية الحاجة الراهنة. فأمر بإخطار بلدان ألومبريس Alumbres، وتوتانا Totana، وليبريّا من أجل أن يتوجهوا لانتظاره في بلش البلانكو؛ ثم حشد رجال المدينة، وانطلق من لورقة فى خامس أيام شهر نوفمبر يرافقه ثمانمائة راجل ومائة فارس. كان قادة المشاة هم: خوان نابارّو دى ألبا Juan Navarro de Alba، وخوان إيليثيس غوتييريس Juan Helices Gutiérrez، ودييغو ماتيو دى غيبارا Diego Mateo de Guevara؛ بينما ترأس الفرسان خوان إيرنانديث مانتشيرون Juan Hernández Manchiron. وصل الحاكم العام مع تلك الجموع إلى بلش البلانكو، وأقام فى الأرباض الكائنة خارج المدينة، وذلك فى منازل الموريسكيين. كان أولئك القوم -على ما يبدو- قد حزموا أمتعتهم من أجل السير نحو الجبال، وكان يوجد داخل المنازل بعض المسلمين الثوار ينتمون إلى لاس كويباس، فى انتظار قدوم قائد مسلم يدعى فرانثيسكو تشيلين Francisco Chelen كان من المفروض أن يأتى لنشر الثورة فى البلدة. مكثت قوات لورقة فى ذلك الموضع حتى وصول رجال ألومبريس وتوتانا وليبريّا. فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر تحركت كل تلك الجموع فى صفوف منتظمة، وتوجهت لقضاء الليلة فى تشيريبيل Chiribel، حاملةً كميات من المؤن والذخائر لكى يودعوها فى أوريا.

أرسل الجيش فى المقدمة رجلين خبيرين بتلك الأراضى، لكى يسبقاه ويقوما باستطلاع الأحوال عند ذلك المعبر، بعد أن وجهت إليهما أوامر بأن يرجعا فى أعقاب ذلك مع بزوغ الفجر وأن يسلكا الطريق ذاته. أمعن هذان الرجلان فى التقدم إلى الأمام، حتى أنهما عندما رغبا فى العودة لتنبيه الجيش إلى ما رأوه لم يتمكنا من ذلك، حيث قطع المسلمون الطريق عليهما؛ فتوغلا فى شعاب تلك الجبال، حتى توقفا فى موضع يقع على مسيرة أربعة أيام من لورقة. عندما رأى الحاكم العام أنهما لم يرجعا -امتثالاً للأوامر التى صدرت إليهما-، تابع مسيرته بعد أن تقدم الركب الجنود الكشّافون.

لدى بلوغ المعبر، ألفى الحاكم العام المسلمين وقد تراجعوا إلى حيث يقضون ليلتهم، فدلف إلى أوريا دون قتال، وأودع بها ما كان فى حوزته من مؤن وذخائر، كما أخرج كل من بها من غير المقاتلين، وأرسلهم إلى بلدان بلش وإلى مواضع أخرى. بعد تزويد ذلك الميدان بالإمدادات، توجه إلى كانتوريا، حيث أحرق أحد مخازن الذخيرة التابعة للمسلمين فى تلك البلدة؛ ثم اشتبك معهم وانتصر عليهم، كما سيرد فى الفصل القادم.

الفصل العشرون

يتناول الكيفية التى عبرت بها قوات لورقة إلى كانتوريا -فى أعقاب إغاثتها لبلدة أوريا- وإحراقها أحد مخازن الذخيرة التابعة للمسلمين فى تلك البلدة، واشتباكهم معهم فى طريق العودة، وإلحاق الهزيمة بهم.

فى أعقاب إغاثة قوات لورقة لحصن أوريا، وإخراج من به من غير المقاتلين، أراد الكثير من الرجال التوجه فيما بعد للإغارة على بلدة غاليرا، لمعرفتهم بانضمام من بها من الموريسكيين إلى الثورة، وإلحاقهم الضرر بأهالى غويسكار. اجتمع القادة للتشاور فى هذا الصدد، بيد أنهم لم يتفقوا على تنفيذه، حيث قالوا إنهم لم يخرجوا من أجل ذلك الغرض، كما أنه ليس من الجيد وضع لواء مدينتهم تحت قيادة القوات التى تتبع السيد أنطونيو دى لونا، دون أن تصدر إليهم أوامر من جلالة الملك بخصوص ذلك. ولمّا كان قد تم تنبيه القادة إلى وجود أعداد ضخمة من النساء وكميات من الثياب والأغنام فى بلدة كانتوريا، وأن المسلمين لديهم مخزن للذخيرة يصنّعون فيه البارود، اتفقوا أن يغيروا على تلك البلدة، فقاموا بتوزيع الذخيرة على حملة البنادق، وغادروا أوريا فى منتصف الليل، بهدف الوصول إليهم فى الوقت الذى يمكنهم من الاشتباك معهم فى معركة صباحية -لكون كانتوريا توجد على مسافة أربعة فراسخ من موقعهم. بيد أن الطريق كان شديد الوعورة، حتى أنهم لم يستطيعوا بلوغ البلدة إلا فى وضح النهار، حيث أشرقت الشمس عليهم فى أثناء وجودهم فى بارتالوبا. وقد ألفوا المسلمين متهيئين لقدومهم، فساق القادة رجالهم فى صفوف منتظمة عبر الحقول، وساروا بمحاذاة النهر نزولاً إلى الأسفل، حتى بدا لهم حصن كانتوريا؛ فأبصروا أعداداً غفيرة

من الرجال عند الأسوار وعلى الأسطح، وهم يطلقون صيحات حرب ويحدثون جلبة بأصواتهم وآلاتهم تصم تلك الأراضى بأسرها، وقد نشروا الكثير من الأعلام على الشرفات؛ فبادر أولئك فيما بعد إلى قصفهم بقذائف مدفعين كانا لديهم.

أرسل الحاكم العام كتيبة من حملة البنادق ليصعدوا عبر أحد السفوح لاحتلال جبل يعلو الحصن، ثم اندفع ومعه كل من تبقى من الرجال نحو بوابة الحصن؛ حيث شرع فى قتال الجنود الموجودين فى داخل الحصن، والذين دافعوا عن أنفسهم بالبنادق والأقواس الفولاذية والمقاليع. استمرت المعركة منذ الساعة السابعة صباحًا وحتى الثانية مساءً. وقد تمكن رجالنا فى تلك الأثناء من الظفر بالجبل، وتمكنوا من هناك من الإطلال على الأسوار والأسطح من عل، حتى لم يعد بمقدور أحد ممن بالداخل الاختباء، فقتلوا بعض المسلمين. كما سنحت الفرصة لمن كانوا فى صحبة الحاكم العام من انتزاع الأبواب الأمامية للحصن - الذى كان المسلمون يضعون فيه كل الأغنام- بأسنة المحاريث والفؤوس. حيث دلفوا إلى الداخل -على الرغم من تمكن المسلمين من جرح بعض الجنود عبر النوافذ الضيقة والحواجز الوقائية- ودخلوا إلى مخزن الذخيرة الذى كان موجودًا ما بين جدارين؛ فخربوا الآلة التى تقوم بتكرير ملح البارود وتصنيع الذخيرة، وأضرموا النيران فى المبنى وأحرقوه بأسره. ولمّا لم يكن فى مقدورهم اقتحام الحصن من دون مدفعية أو سلالم، قاموا بإخراج ألفين وسبعمائة من رؤوس الأغنام وثلاثماة من الأبقار، ثم تراجعوا.

أرسل الحاكم العام فى الطليعة مارتين دى مولينا مع ثلاثين من الفرسان وثلاثمائة من المشاة، على أن ينطلق بتلك السرية ويسعى لبلوغ موضع غويركال فى لورقة خلال تلك الليلة، لأن المسيحيين فطنوا إلى أنه سوف يفد منها العديد من الرجال، استجابةً للإشارات الدخانية الكثيفة التى أرسلها المسلمون، حيث كان بعضهم يستدعى البعض الآخر فى سائر بقاع نهر المنصورة. ثم بدأ الحاكم العام مسيرته مع كل الجنود الباقين؛ وعندما أصبح على مقربة من موضع ألبورياس، اكتشف وجود قوات من الأعداء كانت قادمة من نهر المنصورة لنجدة كانتوريا، وعندما وجدت تلك القوات رجالنا قد تراجعوا،

شرعت في ملاحقتهم. كانت قواتنا قد توقفت لفترة من الوقت حتى تتيح للأغنام فرصة الابتعاد عن المكان. في تلك الأثناء قام الحاكم سارمينتو بإرسال نفر من الفرسان لمعرفة كنه أولئك الرجال الذين يلوحون في الطريق، ثم ذهب وراءهم بنفسه، فتعرف على أربعة ألوية للمسلمين كانت تسير متأخرة بعض الشيء عن الركب، وبدا أنها متوجهة للتوغل في حقول ألبورياس -التي يوجد بها ممر خطير نظراً لكثافة أيكات الأشجار الملتفة ووجود الترع التي يتم عبورها دون جسور. خشي الحاكم العام أن يلحق به المسلمون الضرر إذا ما بسطوا سيطرتهم على ذلك الممر، لأن الهزيمة كانت لابد وأن تلحق بالصفوف؛ فأظهر وكأنه ينتظرهم للاشتباك معهم عند مداخل الحقول.

في تلك الآونة كانت الفريسة قد مرت من الجهة الأخرى من الحقول، فما كان من المسلمين -الذين ظنوا أن توقف تلك القوات عن مسيرتها هو استعداد للبدء في القتال، وأنهم لابد وأن يكونوا قد نصبوا لهم فخًا ما- إلا أنهم حادوا عن طريق النهر الذي كانوا يسلكونه، وصعدوا في عجلة شديدة أعلى خان يدعى بينا رومانا (بن رمانة) Bena Romana، وبدأوا من هناك في إطلاق نيران بنادقهم على مؤخرة جيشنا. أرادت قوات لورقة الهجوم على الأعداء في ذاك المكان، لكن الحاكم العام لم يوافق على ذلك وأمرهم بالمضي قدمًا في مسيرتهم، وقال إنه هو من سيصدر إليهم الأمر بالقتال حينما يعثر على موضع يمكن للخيول التحرك فيه. في أعقاب عبور القوات النهر، ورقعة موحلة شاسعة موجودة في اتجاه متواز، ووصولها إلى بقعة تبعد مسافة نصف فرسخ، تقع بالقرب من مكان يدعى كورّال Corral، قام بتنظيم القوات وصفهم في وضع الاستعداد للمعركة. وصل الأعداء في تشكيل ضخم، ونظراً لدرايتهم الواسعة بتلك الأراضي، فقد بعثوا بثلاثة من الفرسان الأتراك وخمسة من رجال المشاة المسلمين لاستطلاع تشكيلاتنا، والوقوف على الوضعية التي اتخذها الجنود والموقع الذي يحتلونه؛ حيث أنهم قد جاءوا إلى ذلك المكان متأخرين بعض الشيء، ولازالوا يجهلون كنه القوات التي عليهم محاربتها. وبعد أن تعرفوا عليهم، واكتشفوا كمينًا كانت قوات الفرسان والمشاة التابعة للقائد دييغو ماتيو قد نصبته لهم على أحد جوانب الطريق؛ هجموا عليهم وهم

يطلقون صيحات حرب مدوية، وأخذوا يطلقون عليهم نيران بنادقهم والأقواس الفولاذية، بعد أن ظنوا أن عدد رجالنا قليل بالمقارنة مع قواتهم. بيد أن رجال لورقة -الذين لا يهابون أحدًا- أغاروا عليهم بعد أن تلوا صلواتهم ومجدوا الرب، حيث سعى الفرسان لقطع الطريق عليهم، وتعطيلهم -من خلال الهجوم الذى شنوه عليهم- حتى قدوم قوات المشاة. كان زخم هؤلاء وأولئك عارمًا حتى أنه لم تتح لهم الفرصة سوى لإطلاق نذر يسير من الأعيرة النارية، لأنهم ما لبثوا أن بلغوا مرحلة الاشتباك بالأيدى. وقد استبسل كل من المشاة والفرسان فى القتال، حيث قضوا على بعض الأتراك والمسلمين ممن كانوا فى الطليعة، وحملوا الباقين على الفرار، واستولوا على خمس رايات.

قاتل فى ذلك اليوم أحد المسلمين الذين كانوا يحملون واحدة من تلك الرايات على نحو يدعو للإعجاب. لأنه بعد أن تلقى طعنتين بالرماح، حيث قام حامل راية الفرسان بإنفاذ رمحه فى جسده، ظل ينازع ويقاتل لفترة طويلة بينما إحدى يديه عالقة فى رمح العدو واليد الأخرى قابضة على الراية، حتى أمر الحاكم العام أحد حملة الدروع أن يدهسه بفرسه؛ وعقب سقوطه على الأرض، لم يتمكن رجالنا قط من استخلاص الراية من يده إلا بعد أن فارقت روحه جسده. كانت تلك الرايات تابعة لكل من: كودبار، وليخار، وألبانشيس، وبورتشينا، وسيرون، وتابيرناس، وبنى تاغلا؛ وكان قد جلبها أحد أبناء المالح. فى أعقاب هزيمة المسلمين وموت ما يربو على أربعمائة وخمسين منهم، هبط الآخرون إلى الأسفل عبر عدد من مخرات السيول؛ ولمّا كان الوقت ليلاً لم يتمكن رجالنا من ملاحقتهم. مات من جانبنا جنديان وجرح سبعة وثلاثون - كان من بينهم خمسة من حملة السيوف-، إلى جانب موت أربعة عشر فرسًا، حيث قام أحد المسلمين بشق بطون بعضها عند مرورها إلى جانب أحد الجدران الصخرية التى كان مختبئًا وراءها وممسكًا برمح فى يده.

كان الظلام قد حل، فسارت القوات بخطى حثيثة إلى أن لحقت بمارتين دى مولينا، وباتت ليلتها تلك فى غويركال التابعة للورقة يحيطها التأمين الجيد ونوبات الحراسة. تسلّم الحاكم العام فى أثناء وجوده هناك رسالة من مجلس بلديته يحثه على

العودة من أجل توخى الحذر وتأمين المدينة، لأن ناقوس الخطر يدق لديهم فى كل ساعة منذراً بوجود مسلمين؛ فلم تراوده الرغبة فى إجابتها سوى بإرسال مارتين دى مولينا وبدرو دى أوليبير Pedro de Oliver لينقلا إليهم أنباء الأحداث السعيدة. فى يوم تال يوافق الثالث عشر من شهر نوفمبر سار عائداً إلى لورقة، حيث استقبل الأهالى كل القوات بسرور؛ وقد بقت الرايات التى ظفروا بها من المسلمين تذكاراً فى تلك المدينة لتخليد ذكرى ذلك الانتصار، كما صوّت النواب فى مجلس البلدية على الاحتفال بذلك الحدث فى عيد القديس ميّان Millán، لأنها توافق نفس اليوم الذى يقام فيه الاحتفال.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول بعض التدابير التى اتخذها السيد خوان دى أوستريا فى غرناطة فى تلك الآونة، نظرًا للأضرار التى تسبب بها مسلمو غيخار.

أسفر تأخر اتخاذ التدابير اللازمة للحرب من جانبنا عن إقدام الثوار. كان قد تجمع مع بدرو دى مندوثا الحسين فى غيخار حشود غفيرة من المسلمين، حتى أنه إضافةً إلى الرجال الموجودين برفقته فى المعقل -وكانوا ستمائة رجل-، كان يحتشد فى بعض الأحايين ثلاثة أو أربعة آلاف مع القادة: شعيبى، وشوكونثيو Choconcillo، والماكوش، والموخاخار Mojajar، وآخرين كانوا يتنقلون على نحو وقتى، لأن وعورة تلك التضاريس الجبلية كانت مناسبة للسرقات التى كانوا يخرجون للقيام بها ويتمكنون من العودة فى أمان. لمّا كان هؤلاء يثيرون القلاقل فى غرناطة، ويصلون على مقربة من أسوار المدينة فى كل الأوقات، قام السيد خوان دى أوستريا بوضع بعض المقاتلين فى معاقل، وذلك لتأمين الأراضى والحيلولة دون وقوع أضرار.

أرسل السيد خوان كتيبتى مشاة إلى موضعى بينوس وثينيس اللذين يقعان على ضفة نهر شنيل، كما تم وضع فرقتين من الجنود النظاميين عند ربوة الشمس، لأنه يمكن من ذلك المرتفع العالى كشف سائر الروابى الموجودة فى المكان وصولاً إلى جبل غيخار. وقد صدرت الأوامر بإنشاء حائط من الحجارة المدقوقة يخترق صومعة الشهداء حتى يغلق المدخل الموصل إلى الرابية بأكمله من تلك الناحية؛ كما تولت إحدى الفرق مهمة الحراسة داخل الصومعة، بينما قامت فرقة أخرى بحراسة أنتيكيرويلا، وفرقة ثالثة بتأمين بوابة لوس مولينوس (الطواحين) los Molinos. كان الجنود يتأخرون

فى الخروج عندما يتم دق ناقوس الإنذار، لذا فإن قائد سلاح الفرسان الذى كان ينتظر إصدار القرارات، أمر تِيُو غونثاليث دى أغيلار أن يخرج بفرسانه -فور سماعه لدقات الناقوس، وفى أى ساعة من اليوم- للبحث عن الأعداء، وألا يضيع الوقت فى انتظار صدور الأوامر إليه. من أجل تأمين مداخل الغوطة، أرسل السيد خوان -بالإضافة إلى المحاربين المقيمين فى قرى الغوطة- السيد خيرونيمو دى باديّا، ابن غوتيِّرى لوبيث دى باديّا Gutierre López de Padilla، لكى يتمركز فى سانتا فى مع كتيبة من الفرسان؛ كما بعث بكتيبة أخرى إلى بلدة حصن اللوز بغية تأمين ذلك المعبر.

كانت تلك هى أوضاع مدينة غرناطة، التى أمست محاطة بالمعاقل نظرًا للمضايقات التى يقوم بها مسلمو غيخار، حينما طرح السيد خوان دى أوستريا على المجلس فى أحد الأيام مدى أهمية قيام ماركيز بلش -الذى كان يستنفد المؤن فى قلهرّة دون الاضطلاع بأى دور- بالتوجه مع رجاله للقضاء على أولئك السارقين. كما يمكن خروج جيش آخر من ناحية غرناطة لقطع الطريق على الأعداء الموجودين هناك؛ حيث أنهم لم يتسن لهم بأى حال من الأحوال عبور الجبل الذى كانت تكسوه الثلوج. لمّا تراءى للجميع أنه سيكون تصرفًا صائبًا، وتم إبلاغ ماركيز بلش بذلك القرار، تهيأ للامتثال للأمر وأراد القيام بتلك الحملة؛ حيث أرسل توماس دى إيريّرا سرًا لاستطلاع موقع وعدد الرجال الموجودين داخل المدينة. فى أثناء ذهاب القائد توماس ومجيئه، قام الماركيز بالكتابة إلى السيد رودريغو دى بينابيديس، من أجل أن يدع مدينة وادى آش مؤمنة جيداً، ويحضر بصحبة كل رجاله إلى قلهرّة، لأنه ينتوى القيام بغارة مهمة. قام ماركيز بلش باستعراض عام للقوات، وأعد كل الأشياء اللازمة لتلك الحملة، لكن فى أعقاب عودة توماس دى إيريّرا، كانت الروايات التى قصها عليه ذات طبيعة حملته على العدول عن رأيه. وذلك إما لقلة عدد رجاله، ووجوب توافر عدد كبير من أجل محاصرة البلدة والهجوم عليها من اتجاهات مختلفة؛ وهو ما كان أمرًا ضروريًا نظرًا لكون المكان مقسم إلى ثلاثة أحياء يقع كل منها خلف الآخر وكلها كائنة وسط جبال شديدة الوعورة.

وربما كان السبب هو إدراكه أن السيد خوان دى أوستريا سيتبع تحركه بالخروج من غرناطة واصطحاب لويس كيخادا معه، حتى ينضم كلاهما إليه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك؛ وكان ذلك شىء يسعى الماركيز لتجنبه قدر المستطا ع.

بغض النظر عن الداعي، فقد قام ماركيز بلش بصرف قوات وادى أش بعد أن شكر لهم المقصد الذى حضروا من أجله، كما أخبر رودريغو دى بينابيديس أنه سيرسل فى طلبه عما قريب من أجل الاضطلاع بمهمة أخرى ذات أهمية كبرى. وعلى هذا النحو تم التراجع عن شن حملة على غيخار حينئذ، حتى تولى تلك المهمة فيما بعد السيد خوان دى أوستريا بنفسه.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول إغارة ماركيز بلش على البولودوى.

فى أعقاب مرور أربعة أيام على العدول عن شن حملة على غيخار، حمل بعض الجواسيس تنبيهًا إلى ماركيز بلش، حول قيام ابن عبو بإرسال أعداد ضخمة من النساء لقطف الزيتون فى بلدان نهر البولودوى، وذكروا أن ثمانمائة من المسلمين يرافقونهن لحراستهن. فأرسل الماركيز فى طلب السيد رودريغو دى بينابيديس مرة أخرى مع قواته، بالإضافة إلى سلاح فرسان مدينة وادى آش، كما حشد جيشًا من ألفين وخمسمائة من المشاة وثلاثمائة من الفرسان، وانطلق بهم من قلهرّة قبيل انتصاف النهار بساعتين، دون أن يخطر أحداً بما هو مقدم على فعله. وصل الماركيز فى تلك الليلة إلى فينيانا؛ وفى الساعة التاسعة مساءً -بعد أن أدرك أن الجنود قد تناولوا طعام العشاء- أمر بدق الطبول ونفخ الأبواق لحشد الجنود، لتبدأ بعدها فرق المشاة فى التحرك: حيث احتل السيد بدرو دى باديّا طليعة الجيش، وتمركز السيد خوان دى مندوثا فى المؤخرة، كما اصطف الفرسان والمرشدون أمام الجيش ثم تحرك إلى سانتا كروث فى البولودوى -وهو المكان الذى أخبره الجواسيس بوجود المسلمين والمسلمات الذين أرسلهم ابن عبو فيه.

كان الماركيز يرغب فى قطع ذلك الطريق على وجه السرعة، لكى يغير على الأعداء -الذين كانوا يبعدون مسافة خمسة فراسخ من موقع الجيش- مع بزوغ الفجر؛ بيد أن الجنود كانت قواهم خائرة للغاية بسبب الجوع والإعياء، كما كانت تلك الليلة قارسة البرودة، فلم يتمكن الماركيز من تحقيق مسعاه، خاصةً أنه كان يتعين على الجيش

عبور النهر فى أكثر من عشر مواضع خلال الطريق. حينما رأى الماركيز أن جموع المشاة آخذة فى التخلف، وأن ضوء الصباح بدأ فى الظهور، بعث بمن يخبر السيد بدرو دى باديّا أن يحث الخطى قدر المستطاع. أطلق القائد العنان لفرسه، وظل يعدو سريعًا حتى دلف إلى الطرق المؤدية إلى بقاع البولودوى وسانتا كروث، لكن مع كل ما بذل من جهد، فإنه عند وصوله كانت أبراج المراقبة قد اكتشفت وجوده، وبدأت فى إصدار الإشارات الدخانية عبر الجبال لاستنفار الناس. عندما أدرك القائد أنهم قد استشعروا وجوده، أرسل السيد رودريغو دى بينابيديس مع مائة فارس عبر الطريق، ثم قام هو باختصار الطريق عبر أحد سبل الرعاة شديدة الوعورة والانحدار، وتوجه لاحتلال مكان يعلو بلدة البولودوى ويقع على النهر ذاته، وهو موجود على ربوة مرتفعة تطل على تلك الأراضى بأسرها.

من ذلك الموقع، أمر الفرسان بالذهاب لمطاردة المسلمين، الذين شرعوا فى الهروب إلى أعالى الجبال وهم يقتادون النساء أمامهم. وصل الفرسان إلى بعض الرجال وقتلوهم، كما أسروا عدداً كبيراً من المسلمات، واستولوا على الكثير من الأمتعة. واصل السيد رودريغو دى بينابيديس مطاردتهم عبر الطريق حتى صار على مقربة من غيثيخا، فجمع عدداً كبيراً من النساء وقتل بعض المسلمين الذين كانوا قد لجئوا إلى تلك المنطقة؛ لأنه عندما تم ترويعهم بتلك الطريقة، بادر كل منهم بالفرار إلى حيث اقتاده الحظ، فبات المسيحيون وكأنهم يمارسون معهم القنص. فى تلك الآونة قام المسلمون -الذين كان ابن عبو قد أرسلهم لحراسة النساء- بتلبية نداء الإشارات الدخانية، فعطلوا الفرسان ودخلوا معهم فى مناوشات، وأظهروا أمامهم بعض المقاومة، مما أتاح للكثيرين أن يتوخوا جانب الحذر.

وصلت جموع المشاة حوالى الساعة التاسعة صباحًا، وعندما رأى ماركيز مونديخار إنهم لن يحدثوا وقعًا الآن، وإنهم سيمسى لهم دور إذا ما بادر المسلمون بالحضور، أمرهم بالتوقف عند الطريق -وهم مصطفون كلٌ فى موضعه-، وألا ينفصل منهم أحد عن الألوية وإلا نُفذ فيه حكم الإعدام؛ وقد ظلوا هكذا إلى ما بعد انتصاف النهار،

عندئذ أمر بنفخ الأبواق لحشد الرجال. حضر السيد رودريغو دى بينابيديس فى ذلك التوقيت حال تراجعه عبر بعض التلال الموجودة بالأسفل والمفضية إلى ممر يتعين على من يجتازه النزول إلى النهر قسراً. كان المكان ضيقًا للغاية، مما حتم على الفرسان الاصطفاف والعبور واحداً تلو الآخر؛ وكان العديد من المسلمين يلاحقونهم فى تصميم بالغ، حتى أن بعضهم تمكن من بلوغ صفوف الفرسان. حينما شاهد الماركيز مجيئهم على هذا النحو، أمر بتوجه عشرين من حملة البنادق بسرعة كبيرة لاحتلال إحدى الروابى، حيث تراءى له أنه سيكون موضعًا جيداً ليؤمنوا منه الممر لرجالنا. وصل الرماة فى الوقت الملائم للغاية مما خول لهم تلافى ذلك الضرر، وتمكن السيد رودريغو دى بينابيديس ومن أتى برفقته من الرجال من التراجع.

فى أعقاب تجميع الرجال والغنائم، أصدر ماركيز بلش أمراً إلى المراجع ناباس دى بوبيلا لكى يتوجه مع ثلاثين من الفرسان لفرض السيطرة على المعبر المفضى إلى طريق الرعاة -الذى ذكرنا من قبل أنه دخل منه إلى موقعه-، وذلك خشية أن يسلكه الجنود العصاة للهرب بالمسلمات وأن يتسببوا فى إحداث الفوضى. اصطحب المستشار ناباس معه القائد خوان ثاباتا -وهو أحد أهالى البسيط- وغيره من أصحابه القادة، وقد تأخروا فى الطريق أكثر مما ينبغى، حتى أنهم عند بلوغهم أعلى الجبل ألفوا المسلمين وقد سبقوهم للاستيلاء على الممر. عندما أراد أن يخترقهم من أجل ضم قوته إلى القوات الأخرى، قُتِلَ القائد خوان ثاباتا على أثر تلقيه عيار نارى فى الجبهة فى أثناء عبور الجنود، كما تمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة بالباقين. كان هناك من لجأ إلى مؤخرة قوات المشاة حيث السيد بدرو دى باديا، بينما عاد آخرون إلى أسفل النهر حيث نزلوا إلى مدينة ألمرية برفقة المستشار القانونى ناباس دى بوبيلا، بعد أن اتخذوا من أحد حملة الدروع الذى له دراية بتلك الأراضى دليلاً لهم. لم يتسن لماركيز بلش العودة لإنقاذهم، على الرغم من أنه أطلق النفير، لأنه كان قد تقدم كثيراً؛ وكان الماركيز يتعجل ارتقاء الجبل للسيطرة على أعلاه قبيل حلول الظلام، ومغادرة تلك الأماكن الضيقة التى لا يتاح للفرسان حرية التحرك فيها. عندما كف الأعداء عن

ملاحقة الماركيز، توجه ليقضي ليلته تلك في نزل السيدة ماريا، حيث بات الجنود حاملين الأسلحة في أيديهم. وقد هبت في تلك الليلة أجواء عاصفة مصحوبة برياح عاتية، حتى أن بعض الأطفال المرافقين للمسلمات توفوا من شدة البرد. في اليوم التالي عبر الجيش إلى فينيانا، حيث مكث بها يومين، وفي اليوم الثالث وصل إلى قلهرّة. مات خلال تلك الحملة مائتان من المسلمين، كما تم أسر ثمانمائة من النساء والأطفال، والاستيلاء على كميات كبيرة من الأمتعة؛ بينما قُتِلَ بين صفوف المسيحيين ثمانية عشر رجلاً، و كان هناك بعض الجرحى.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول الكيفية التى تلقى بها ماركيز بلش أمرًا من جلالة الملك لإغاثة جبهة بسطة، والكيفية التى أغار بها المالح على غويسكار، وما دار خلال تلك الأيام فى تلك الناحية.

فى أعقاب رجوع ماركيز بلش إلى قلهرّة، تلقى أمراً من جلالة الملك لكى يذهب إلى بسطة، ويسعى لإيقاف العدو -الذى كان يجوب الأراضى ويعسكر فيها-؛ على أن يصطحب معه من كان بحوزته من الرجال، بالإضافة إلى القوات الموجودة فى تلك المدينة تحت إمرة السيد أنطـــونيو دى لونا، وألف رجل كان ماركـيز كاماراسا Camarasa قد بعث بهم فى تلك الأيام من البلدان التى تدخل فى نطاق كاثورلا. انطلق الماركيز من ذلك المعسكر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر لعام ١٥٦٩، وذلك برفقة ألف من المشاة ومائتين من الفرسان -حيث لم يعد لديه المزيد من الرجال. غادر السيد أنطونيو دى لونا بسطة امتثالاً لأوامر السيد خوان دى أوستريا، حيث عاد لتولى مهام منصبه كقائد على القوات المقيمة فى غوطة غرناطة. وقد مكث ماركيز بلش فى تلك المدينة لعدة أيام بغية التزود بالأشياء التى تلزمه للبدء فى مهمته.

فى تلك الآونة، توجه خيرونيمو المالح إلى بلدة أورثى مع ما يربو على ستة آلاف رجل، فأخرج كل من يقطن بها من الموريسكيين، وأرسلهم هم ونساءهم وأبناءهم وأملاكهم المنقولة إلى قرية غاليرا. وحيال عدم استطاعته احتلال حصن أوريا - الذى دافع عنه قائده سيرنا Serna، وتسبب فى قتل عدد من المسلمين التابعين له-

مضى إلى كاستيخا، حيث قام أيضًا بحشد موريسكيي تلك البلدة وإيداعهم فى غاليرا. أراد المالح أن يصنع هناك العجين اللازم للحرب، فخبأ بالداخل كميات ضخمة من القمح والشعير والدقيق وغيرها من المؤن. وقد أمر بإقامة مطحنة، وشرع فى تقسيم الشوارع، ليبدأ هكذا فى تحصين تلك المدينة فى همة متناهية؛ وقد اختص بمسألة التحصين ذلك القائد التركى -الذى كنا ذكرنا من قبل أنه يدعى كارياخال[8]- وكان رجلاً بارعًا فى شؤون الحرب. حينما تراءى للقائد إن ما يحدث هو فرصة جيدة لاحتلال غويسكار، توجه فى إحدى الليالى مع خمسة آلاف رجل لنصب كمين فى إحدى الكرمات التى تقع على مقربة من البلدة؛ وذلك من أجل أن ينبلج ضوء الفجر وقد دلف إلى الشوارع والمنازل دون أن يشعر به أحد، ليضرم بها النيران، ثم يحاصر الحصن -الذى كان يعلم بوجود الموريسكيين محبوسين فى أقبيته. وإذا لم يتمكن من إخراجهم من هناك أو الظفر بالحصن، يلحق بالمسيحيين كل الضرر الذى يتسنى له إحداثه، ويغادر البلدة بعد أن يصطحب معه الموريسكيات.

حدث أنه فى اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر، ما بين الساعة السابعة والثامنة، كان هناك عشرون فارسًا من الغرباء فى الساحة، وقد بكروا من أجل الذهاب إلى حصن أورثى، حينما أبصروا مجيء راهب يتبع مذهب القديس دومينغو يعدو مهرولاً إلى مقدمة الشارع، وقد ارتدى على ملابسه الحلة الخاصة بإقامة شعائر القداس، وأخذ يطلق النفير ويقول إن المسلمين يدخلون عبر الشوارع. لمّا كان الرجال على أهبة الاستعداد، فقد تجمع معهم عشرة أو اثنا عشر فارسًا من الأهالى، وأسرعوا إلى حيث يتوافد المسلمون تبعًا لما أخبرهم به الراهب. وحينما وصلوا، كان العديد من المسلمين يجولون ويضرمون النيران فى المنازل؛ وبالكاد تم استشعار وجودهم، لأن غويسكار بلدة ضخمة ومستوية ومترامية الأطراف، ولم تكن الأسوار تحيط سوى بالقرية القديمة والقلعة. تمكن الأعداء من الدخول خلسةً إلى الشوارع، حيث لم يكن هناك حراس

(8) أشرنا من قبل إلى أن القائد التركي يدعى كاراباكا. (المراجع)

أو أسوار دفاعية تحول دون قيامهم بذلك. لكن ســـرعان ما أنقذها السور الحقيقى، الذى تمثل فى حماس الرجال الشجعان، حيث تجمع مائتان من حملة البنادق مدعومين بالفرسان وتصدوا لهم. ظل الرجال يقاتلونهم فى استبسال لما يربو على ثلاث ساعات، ولطالما توافد عليهم رجال جدد لتدعيم جانب المسيحيين ممن يحاربون دفاعًا عن ديارهم ونسائهم وبنيهم؛ وفى النهاية، هُـــزِمَ الأعداء وحُملوا على الهـــرب، بعد أن قتـــل منهم ما يزيد على أربعمائة رجل، بينما لم يُقتَل سوى خمسة من المسيحيين.

كان المـالح لديه مائتان من حملة البنادق الأتراك، الذين كانوا دائمًا يتولون مهمة تكوين جبهة لتأمين تراجع قواته، ولولا هؤلاء لكانت قد لحقت به أضرار تفوق بكثير ما تعرض له. فحشد قواته فى غاليرا، وخلّف بها عددًا كافيًا من الرجال، بالإضافة إلى كارباخال[(٩)] ومعه مائة وأربعون من الأتراك؛ بينما مضى هو مع باقى الرجال إلى نهر المنصورة. عم الفرح الشديد أهالى غويسكار وباتوا يلهجون بالحمد إلى الرب لتخليصه إياهم من ذلك الخطر، ومنحـهم ذلك الانتصـار الشـهير. أعقب ذلك بثلاثة أيام وصول قوات الإغاثة إليهم من كاراباكا، وثيهيخين، ومـوراتايّا -وكان قوامـها أربعين فارسًا وخمسـمائة من المشاة مصطفين فى نظام محكم. كان الحاكم العام يرغب فى التوجه لفرض حصـار على غاليرا، بيد أن ماركيز بلش بعث من يحمل إليه أمرًا منه بعدم الذهاب. وفى غضون ثمانية أيام انطلق هـو من بسطة برفقة أربعة آلاف راجل ومائتى فارس. وفى أثناء مروره إلى جوار غـاليرا، ترك بهـا القائد دييـغـــو ألباريث دى ليون Diego Álvarez de León ومعه حشد من الرجال؛ حيث تراءى له أن المسلمين سيغادرون ولن يقدروا على تحمل الحصار؛ ثم توجه إلى غويسكار مع انتصاف الليل لكى يصدر أوامره حول الأمور التى تبدو له ضرورية. حينما تبين له أن المسلمين يظهرون حالة من الهدوء، وبعد مرور ثلاثة أيام، خرج يرافقه الجيش بأكمله، وقام بفرض حصار على تلك المدينة،

(٩) الاسم الصحيح هو كاراباكا وسيصحح المؤلف الاسم بعد قليل. (المراجع)

وقصفها مستخدمًا ست قطع مدفعية من البرونز ومدفعين حديديين. بيد أنه لم يحدث سوى تأثير ضعيف، لأن المسلمين كانوا يخرجون إلى خارج البلدة كل يوم، ويلحقون الضرر بالمسيحيين دون أن ينـالهم أذى، كذلك فلم يتم مهاجمتهم أو الإتيـان على أى حدث جدير بالذكر. لندع تلك الوقـائع جانبًا الآن، ونذهـب لتناول ما كان يدور في نواحى غرناطة.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول الكيفية التى ألحق بها تيّو غونثاليث دى أغيلار الهزيمة بمسلمى غيخار الذين جاءوا للإغارة على غرناطة.

فى تلك الأيام خرج من غيخار أربعمائة مسلم برفقة الشوكونثيو، ووصلوا إلى بيت الديك الكائن بالقرب من مدينة غرناطة، وذلك فى يوم الاحتفال بعيد القديس نيكولاس الموافق السادس عشر من شهر ديسمبر. عندما اكتشفت أبراج المراقبة فى ربوة الشمس وجوده وأطلقت النفير، خرج تِيّو غونثاليث دى أغيلار -يصحبه حملة الدروع التابعين لإيثيخا، الذى كان مكلفًا برئاستهم- من بوابة فحص اللوز Fraxal Leuz؛ فنزل إلى نهر حدرّة، ثم صعد بعد ذلك إلى الربوة التى توجد بها كتائب المقاتلين. وعندما تم تنبيهه إلى أن المسلمين يتراجعون صوب غيخار، وأنهم على مقربة من موضعه، اصطحب معه عشرين من حملة البنادق وانطلق فى إثرهم. كان المسلمون قد حشدوا صفوفهم وأخذوا يسيرون فى تؤدة، فلمّا اكتشفوا قدوم الخيول، شرعوا فى إرسال الإشارات الدخانية عبر الروابى، وأظهروا رغبتهم فى القتال، حيث وقفوا على قمة إحدى الروابى وهم يطلقون صيحاتهم القتالية المعتادة. نظرًا لأن حملة الدروع كانوا متخلفين ولايزالون فى الطريق، حيث لم يتمكن أكثر من عشرين فارسًا من اللحاق بتِيّو دى أغيلار، فقد أمر هو أيضًا بإيقاف المسيرة، وإطلاق النفير من أجل أن تقوم القوات بحث الخطى.

لم يمض وقت طويل حتى انضم إليه ثمانون من الفرسان، ونظرًا لقول البعض بوجود كمين خلف الرابية التى توقف المسلمون عندها، أرسل اثنين من حملة الدروع

لاستطلاع ذلك الأمر: فتوجه أحدهما إلى نهر شنيل حيث كانت توجد هوات ضخمة، بينما ذهب الآخر إلى الجزء المرتفع من الرابية؛ وقد انطلق كلاهما دون أن يعلم أحدهما بوجود الآخر. عند عودة من توجه منهما إلى ناحية شنيل، قال إنه لا يوجد في كل تلك الأرجاء سوى المسلمين الذين تم اكتشاف وجودهم؛ أما الآخر فكانت أقواله مختلفة، حيث أشار إلى أن هناك ما يربو على أربعة آلاف مسلم قد نصبوا فخًا خلف الربوة. لكن فيما بعد فطن القائد إلى أن الأول كان يقول الحقيقة: لأنه إذا كانت القوات قد نصبت فخًا، فمن المؤكد أن الأعداء لن يبعثوا بإشارات دخانية؛ وإذا كانوا قد أرسلوها، فذلك يعني أنهم يطلبون النجدة. عندئذ نظم تِيّو دي أغيلار صفوف الفرسان، وأمر بإطلاق النفير، ثم بادر بالهجوم.

تصدى المسلمون لرجالنا، وقاموا في أثناء تبادل إطلاق الدفعة الأولى من نيران البنادق بجرح اثنين من حملة الدروع وقتل ثلاثة من الفرسان، أما القائد فقد اخترقت الدرقة مقبض الترس الخاص به. إلا أن الفرسان دهسوهم فيما بعد وألحقوا بهم الهزيمة، حيث قتلوا خمسين مسلمًا وجرحوا الكثيرين، بينما لاذ الباقون بالفرار عن طريق الهبوط إلى تلك الهوات في اتجاه شنيل، كما خلّفوا وراءهم العديد من البنادق والأقواس الفولاذية لكي تمسي حركتهم أخف. ظل الفرسان يلاحقونهم لفترة طويلة، واستولوا منهم على مائة بقرة وثلاثين من الأمتعة الخاوية عند سفح جبال غيخار، ثم تراجعوا صوب غرناطة مع تلك الغنيمة غير المتوقعة. في تلك الأثناء استجاب مسلمون كثيرون للإشارات الدخانية، وانقضوا على رجالنا، وأخذوا يشتبكون معهم حتى اضطروهم إلى التخلي عن جزء من الفيء، لأنهم لم يقدروا على اقتياد كل ما غنموه عبر تلك الأماكن المنحدرة والوعرة؛ لكن عند بلوغهم ربوة الشمس –حيث أتيح للفرسان التحرك بشكل أفضل– لم يجسروا على المضي قدمًا. كانت تلك الحملة ذات أهمية بالغة في كبح جماح المسلمين في معقل غيخار؛ لأنهم منذ ذلك الحين باتت مرات خروجهم أقل، ولم يعودوا يجرؤون على إحداث أضرار على مسافة قريبة للغاية من المدينة.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول الأمر الذى أصدره جلالة الملك بتشكيل جيشين للتصدى للأعداء، وبمرافقة السيد خوان دى أوستريا لأحدهما.

كان الأثر الضئيل الذى خلفه جيشنا فى غاليرا، وتأخير إنزال العقاب بالثوار، هو الداعى لقيام السيد خوان دى أوستريا -الفتى المولع بالقتال، وصاحب الهمة العالية- بإعمال يده فى الكتابة إلى جلالة الملك؛ معبّراً عن ضيقه لإرسال جلالته إياه إلى غرناطة، والإبقاء عليه هناك فى توقيت بات فيه الجميع مشغولين بينما ظل هو عاطلاً، مع كونه آخر شخص يلائمه البقاء من دون فائدة. كما طرح على جلالة الملك رغبته فى شغل ذاته، وبيّن له وضع المسلمين فى البشرات، وأبدى له الخطر المتمثل فى انتقال الثورة إلى مرسية وبلنسية، إذا ما دعّم المسلمون مواقعهم فى كل من: سيرون، وتيخولا، وبورتشينا، وتاهالى، وخيرغال، وكانتوريا، وغاليرا، وغيرها من البقاع التى بسطوا سيطرتهم عليها. كما أوضح لجلالته قدر الفائدة الكبيرة التى ستعم إذا ما تم تناول مسألة الحرب بحمية، ومدى النعمة الاستثنائية التى سيتفضل بها عليه إذا ما منحه الإذن فى مغادرة غرناطة والذهاب لإنهائها شخصياً.

فى أعقاب تدبر جلالة الملك لكافة تلك الأمور، والتكرم على السيد خوان بالموافقة على تلك الرغبات الحميدة، أمر جلالته بتشكيل جيشين من جديد: أحدهما فى منطقة نهر المنصورة - التى يوجد بها ماركيز بلش- على أن يحل السيد خوان دى أوستريا محل الماركيز؛ وآخر فى منطقة غرناطة، من أجل أن يقتحم دوق سيسا البشرات من تلك الجهة. تم اتخاذ العديد من التدابير، والتزود بكميات كبيرة من المؤن والأسلحة

والذخيرة من أجل تلك الحملة. خرج الكثير من مستشارى المحاكم والمحاكم العليا لإمداد الأقاليم بكافة الأشياء اللازمة. أما أنا فقد أُمرت بالتوجه إلى مدينتى أبدة وبياسة، وإلى البقاع التى تدخل فى نطاق كاثورلا، من أجل تنظيم إمدادات المؤن والذخيرة التى سترد من هناك(١٠)؛ كما قام أعضاء المجالس البلدية بتعيين مندوبين من بلدياتهم، ومنحوهم نقوداً لهم ولشراء لأمتعة. توجه القائد العام لقوات قشتالة إلى قرطاجنة لكى يجلب قطعًا من المدفعية وأسلحة وذخائر وكميات ضخمة من المؤن. تم تنصيب قادة جدد وتكليفهم بتجنيد المزيد من الرجال. كما تم التنبيه على المدن بأن تعيد تشكيل الكتائب التى شاركت بها فى الحرب، وعلى من لم يكن قد أرسل فرقًا أن يبادر بإرسالها.

كان ابتهاج المحاربين كبيراً حينما تم الإعلان عن خروج السيد خوان دى أوستريا مع الحملة. توافد على الجيش العديد من الفرسان والجنود الاستثنائيين - الذين لم يكونوا قد تحركوا إلى الآن. حيث التهبت حماسة الرجال، ودب الخوف فى نفوس الأعداء، الذين تنبأوا بفنائهم حينما رأوا أن مشيئة ذلك الأمير العظيم ستضع حداً لتأخير حسم المعركة، وهو ما كان يناسب أوضاعهم للغاية. لمّا كان من الضرورى مغادرة السيد خوان دى أوستريا لغرناطة، لم يكن من الصواب غض الطرف عن غيخار، حيث عقد السيد خوان العزم على الذهاب بنفسه للإغارة على أولئك اللصوص قبيل اضطلاعه بالحملة. على الرغم من أنه قد واجه بعض المعارضة فى هذا الصدد، فقد تمكن من القضاء عليهم على النحو الذى سنسوقه لاحقاً. لنذهب الآن لتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى منطقة منتميس.

(١٠) من المعلوم أن كارباخال كان مشرفًا على حسابات الجيش الإسبانى خلال الحرب على الموريسكيين. (المراجع)

الفصل السادس والعشرون

يتناول الكيفية التي عاد بها مسلمو جبال منتميس إلى إعمار ديارهم، وإحراقهم لحصن توروكش، وإحداثهم أضراراً أخرى بتلك الأراضي.

في أعقاب فتح القائد العام لقوات قشتالة لحصن فريخيليانا، قام مارتين الوزير وإيرناندو الدرّة وباقي قادة المسلمين في جبال منتميس بحشد صفوفهم في البشرات، وظلوا خلال فترة طويلة يرافقون ابن أمية، ومن بعده ابن عبو، ويحصلون على الأجر. خلال الفترة ما بين الحادي عشر من يونيو والثالث عشر من ديسمبر بات الجبل مهجوراً وآمناً للغاية، حتى أن أهالي بلش صاروا يجولون في أرجائه دون أن يواجههم خطراً أو تساورهم شكوك، بحثاً عن الأشياء التي تركها الثوار مخبأة هناك. لمّا كانت هنا مكاسب، فقد توافد العديد من الأفراد إلى تلك المدينة على إثر تلك الأنباء، حتى بدا وكأن المدينة تضم معقلاً كثيفاً، مما كان سبباً وراء عدم تجرؤ المسلمين على العودة إلى تلك الأراضي.

بات الثوار الموجودون في البشرات يكابدون الجوع والمشقة، وأخذوا يجوبون أراضي بعيدة وهم يعانون العوز الشديد، حتى أن الخريران عقد العزم على الذهاب لاستطلاع الجبل وتفقد الأحوال مع ستين من رفاقه. فلمّا ألفاه خالياً ويغص بالفاكهة، رجع إليهم وأخبرهم كيف أن منازلهم خاوية، وأن أغصان الأشجار تنوء بما تحمله من فاكهة، وأنه حتى العصافير ليست موجودة لتعكير صفوهم. بمقتضى تلك الأنباء بادر الدرّة بالقدوم مع الرجال جميعاً إلى كومبيتا؛ ومن هناك تفرقت الجموع، فتوجه الخريران إلى سيديّا، وذهب باقي القادة كل إلى موضعه. كان أول ما قاموا به

-اقتداءً بالنموذج الذى شهدوه فى البشرات- هو إحراق الكنائس؛ ومنذ ذلك التوقيت صاروا يجوبون الأراضى ويحدثون أضراراً فادحة: فأسروا المسيحيين وقتلوهم، واستولوا على ما بحوزتهم من ماشية. علاوةً على ذلك فقد وضعوا حصن كانييس دى أثيتونو تحت ضغط شديد، حتى بات لزامًا خروج حامية كثيفة لإمداده باحتياجاتها؛ حيث اضطروا ماركيز قمارش إلى المجىء بشخصه، فى ألف رجل من بلدة اللسانة، من أجل القيام بما تقتضيه الحاجة وتزويده بما يلزم. نظراً لأن الدرّة أصبح يمتلك ما يربو على سبعة آلاف رجل مقاتل فى الجبال وهو على رأسهم، كان يقوم بإثارة القلاقل فى مدينة بلش فى كل وقت؛ حتى صار يبلغ المنازل نفسها، ثم يتراجع دون أن يلحق به أى أذى، لأن الطقس والتضاريس كانا يصبان فى صالحه.

تم الإعلان لاحقًا عن قيام المسلمين بتحصين كومبيتا لكى يقيموا بها جبهتهم المقابلة لبلش، وعن أن أهالى المواضع الشرقية ومنخفض مالقة لا يسعهم انتظار حدوث ذلك من أجل القيام بالثورة. بيد أن تلك الأنباء كانت ملفقة من قبل أشخاص كان يحزنهم رؤية تلك البلدان مسالمة، نظراً للنفع الذى يمكن أن يعود عليهم من جراء نشر الاضطرابات بها. فما كان من أريبالو دى ثواثو -الذى اعتقد فى صحة ما يقال حول كومبيتا- إلا أن حشد ألفًا وستمائة من جنود المشاة، ومائة وستين فارسًا من المناطق التى تدخل تحت نطاق سلطته، وثلاثمائة جندى من التابعين للبحرية -كان السيدان سانشو دى لييبا وبيرينغيل دورنوس Berenguel Dornos قد منحاه إياهم-، وتوجه برفقتهم جميعًا للإغارة على ذلك الموضع مع بزوغ الفجر. لكن المسلمين كانوا قد تلقوا تنبيهًا فى الوقت المناسب، فلم يجرؤوا على الانتظار وتراجعوا إلى الجبال. استولى رجالنا على الكثير من المؤن والأمتعة والأغنام، ولم يوافق القائد على أن تستمر القوات فى مطاردتهم إلى ما بعد ميناء بلانكو؛ كما أمر بتدمير المكان -الذى لم يكن به حصن، أو ما يشير إلى الرغبة فى إقامة حصن- وعاد أدراجه إلى بلش. لم يمض وقت طويل على ذلك الحدث حتى بعث درّة بتسعمائة من المسلمين لإحراق بلدة

ألفارانتيخو Alfarantejo، وفى أثنـــاء عودتهم قـــاموا بقتـــل عشـــرين جنديًا كان قائد كـانيس قد أرسلهم للحراسـة برفقـة أحـد الحجاب، وذلك فى موضع يدعى تيناخويلا دى كانييس Tinajuela de Canilles.

حينما وردت أنبـــاء إلى المسلمين حـــول تجمع مسيحيى بلـدة توروّكس Torrox فى الحصن، وكونهم يخرجون صباحًا لمزاولة أعمالهم فى الحقل، ويتركون رجلاً واحداً مع النسـاء، أرسل درّة جماعـة من المسلمين ليلاً حتى يختبئـوا فى منازل البلدة، ويتحينوا الوقت الذى يكون فيه المسيحيون بالخارج، ثم يحتلون الحصن. أعد الرجال الكمين، وعندما حان الوقت حملوا أحد الكلاب على النباح؛ فلمّا خرج ذلك الرجل قليل الفطنة المدعو إيرناندو دى لا كوبا Hernando de la Coba لتفقد تلك الضجة قتلوه رميًا بأحد السهام. أضرم الرجال النيران في بوابة الحصن، فما كان من النساء الخائفات -اللواتى ليس لديهن من يدافع عنهن- إلا الاستـسـلام، فـحـملوهن أسـيـرات إلى البشرات. حينما تراءى للقوات أنهم لن يقدروا على الدفاع عن الحصن، أشعلوا فيه النيران وقفلوا عائدين إلى الجبل.

الفصل السابع والعشرون

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على غيخار، والظفر بها.

غيخار بلدة كبيرة، وهى مقسمة -كما ذكرنا آنفًا- إلى ثلاثة أحياء كائنة فى حضن جبل يتسم بالوعورة الشديدة. يبرز ذلك الجبل من جبل شلير، عند سفح المنطقة الظليلة التى يطلق عليها المسلمون حفرة جهنم، والتى تنبع منها العيون الرئيسة التى يسيل منها نهر شنيل؛ يجرى النهر بين تلك الجبال، وينحدر إلى الأسفل عبر صخور بالغة الوعورة ذات قاعدة غير منتظمة تكثر بها الأحجار، وصولاً إلى بلدة بينيّوس Pinillos. أسفل تلك البقعة بقليل ينضم مجرى النهر إلى نهر المياه البيضاء، الذى يأتى مروراً ببلدتى كينتار ودودار، عبر وادى أكثر استواءً واعتدالاً. حيث يتجها معًا ليزودا قرية ثينيس بالمياه، ثم يسيرا من هناك إلى مدينة غرناطة. يخرج النهر إلى غوطة مستوية - تمثل أكثر المناظر المتعة حسنًا ونضارةً- حيث تبدو بساتينها وغيلاتها وكأنها حديقة متفردة، أرادت من خلالها الطبيعة -بما أودعته هناك من تنوع فى صوف الفاكهة- من التلذذ فى أثناء رسمها. وبهذه الطريقة يكون جبل غيخار هو المنطقة الكائنة ما بين هذين النهرين، حيث ينتهى الجبل عند نقطة التقائهما.

كان السيد خوان دى أوستريا يرغب فى الخروج من أجل شن حملة على بقاع بسطة ونهر المنصورة ولمّا كان من المقرر الإغارة على غيخار أولاً؛ فقد نشأت بعض الاعتراضات بين أعضاء المجلس. أما من تبنوا فكرة الاضطلاع بالمهمة الرئيسية، فقد أرادوا صرف النظر عن تلك الغارة لكون فائدتها أقل من أضرارها. لأنه إذا ما

سارت الأمور على ما يرام، فلن تسفر الغارة سوى عن القضاء على ذلك المعقل، حيث لا يوجد مكان يتقدم صوبه الجيش لاحقًا فى تلك الأنحاء؛ وإذا كانت نهاية الأمور سيئة، فسيفقد المسيحيون قدراً كبيراً من سمعتهم، لأن هذه هى الحملة الأولى التى يقوم بها السيد خوان دى أوستريا بنفسه. قال سيادة الرئيس بدرو دى ديثا -الذى كان سيمسك بزمام الأمور فى غرناطة- إنه من الملائم أن تضطلع القوات قبل أى شىء بإزاحة أولئك اللصوص من هناك، من أجل تأمين المدينة من الغارات، وحتى لا يخلّفوا وراءهم أى أعداء. كما أن الموضع لا يتسم بكل ذلك القدر من الوعورة، والتعزيزات التى قام بها المسلمون ليست بالغة التحصين، وكذلك فإن المعقل ليس بالضخامة التى يتم تداولها. كما أنه يبدو من غير اللائق أن نود الذهاب فى طلب الأعداء إلى منطقة أخرى بعيدة للغاية، ونترك بعضهم على مقربة من ديارنا.

كان ذلك الشأن بالغ الأهمية، خاصةً فى تلك الحالة. حينما وجد السيد خوان دى أوستريا أن المسألة فائقة الصعوبة، أرسل يستدعى إلى المجلس كلاً من: السيد أنطونيو دى لونا، والسيد خوان دى مندوثا سارمينتو، والسيد دييغو دى كيسادا -وهو رجل ولد وتربى بين تلك الجبال، وله دراية واسعة بشتى أرجائها- من أجل أن يتباحثوا معًا مع أعضاء المجلس أفضل ما يصلح القيام به فى هذا الصدد. عندما لم يتوصلوا إلى اتخاذ قرار، لعدم تأكدهم من طبيعة الوضع فى غيخار، اقترح السيد دييغو دى كيسادا أن يجلب لهم مسلمين أو ثلاثة من البلدة ذاتها، لكى يتسنى لهم إخبارهم بما يودون معرفته. فلمّا قال له السيد خوان دى أوستريا إنه لا يرغب فى تعريضه لذلك الخطر، أجابه بأن الأمر ليس خطيراً، ولكنه يتطلب بذل الجهد، وأن قدميه هما من سيتحملان ذلك العبء. استحسن الجميع ذلك القول، وتم إسناد المهمة إلى السيد دييغو؛ كما صدرت الأوامر أيضا إلى السيد غاثيا مانريكى وتيّو غونثاليث دى أغيلار لكى يتوجها مع مائتين من الفرسان لاستكشاف المكان من طريق المياه البيضاء؛ بيد أن تلك المهمة التفقدية لم تسفر سوى عن تخفيف الحصار هناك ، وذلك على النحو الذى سنسوقه فيما يلى.

اصطحب السيد دييغو دى كيسادا اثنى عشر رجلاً يمتازون بالإقدام، وفى أثناء تجوله فى قرية حصن اللوز، وعبر جبال لا بيثا -وهى مسقط رأسه- توجه سيراً على الأقدام لتفقد بعض الشعاب الجبلية، التى كان على دراية بوجودها خلف جبل غيخار؛ فقبض على ثلاثة من المسلمين كانوا قادمين من المكان ذاته، وعاد بهم إلى غرناطة. أمدنا الأسرى بالمعلومات حول التحصينات التى قام بها المسلمون، فأخبروا عن وجود الشعيبى داخل المدينة مع أربعمائة من الجنود المزودين بالبنادق من مواطنى تلك الأراضى، علاوةً على ستين من الأتراك والمسلمين المغاربة، وذلك فى صحبة القائد التركى المدعو كارباخال -الذى كنا قد ذكرنا أنه يرافق المالح- وكان ذلك الأخير قد غادر غاليرا خلال تلك الأيام، قائلاً لمن بها من المسلمين أن يهجروها نظراً للدمار الذى سيلحق بها. كما أن الرانداتى والبارتال كليهما فى المدينة، بالإضافة إلى قادة مسلمين أخرين فى صحبة كتائبهم. أضاف المعتقلون أن الجميع يضطلعون بنوبات الحراسة فى عناية شديدة، وأنهم قد قطعوا الطريق الصاعد من المياه البيضاء بواسطة خندق صخرى واسع يتجاوز ارتفاعه سبعة أقدام، حيث يقطع الصخور التى تشكل الشقوق فى السلسلة الجبلية ما بين ربوة وأخرى، ليأخذ هيئة انطلاق السهم من القوس فى المنطقة الشمالية من الحى الأول. فيما يتعلق بالحى الأوسط -الذى كانت القلعة مشيدة به قديماً- فقد شرعوا فى إقامة حائط من الحجر المدقوق فى مقدمة الرابية، وذلك فى البقعة التى يشكل الدخول منها الصعوبة الأقل، لأن سائر النقاط الأخرى محاطة بجبل عال وشديد الانحدار يظلل مياه نهر شنيل.

فى أعقاب استقاء المعلومات من المسلمين الثلاثة، الذين اتفقت روايتهم فيما ذكروه -وهو أمر لم نشهده سوى مرات قلائل خلال تلك الحرب-، أمر السيد خوان دى أوستريا باستدعاء الأدلاء وبعض الرجال ذوى الخبرة الواسعة فى تلك الأراضى. حيث فهم منهم أنه يمكن -عن طريق بذل المزيد من الجهد- الدخول إلى البلدة من مكانين، دون التوقف عند الطرق أو الخندق؛ وذلك عبر تقسيم القوات إلى فريقين: بحيث يصعد أحدهما عبر الجزء المثلث من الجبل، الذى يبرز إلى أعلى عند الجزء المشرف على نهر المياه البيضاء، فى أثناء قيام الفريق الثانى بدورة كبيرة من أجل أن يحضروا ويدخلوا

البلدة من المنطقة الكائنة باتجاه الشرق، فيتجنب هؤلاء وأولئك الدخول إلى بلدة سيبيا Silla، ليهبطوا من البقعة الموجودة ما بينها وبين غيخـار عبر سفحى الربـوتين دون أن ينقض عليهم الأعداء، لثقتهم فى عدم إمكانية الوصول إليهم من أى جهة أخرى بخلاف الطرق المباشرة.

فى النهاية تم اتخاذ القرار بالموافقة على القيام بالحملة. وهنا نشب خلاف بين كونت تينديًا والمأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى حول أيهما ينبغى أن ينال شرف رئاسة مقاتلى المدينة؛ لكون أحدهما هو القائد والثانى هو المأمور القضائى. واضطرا لإحالة تلك القضية إلى المجلس الأعلى، الذى أرجأ الأمر حتى صدرت الأوامر بخروج المأمور القضائى مع القوات. حينما أضحت الأمور جميعًا على أهبة الاستعداد للانطلاق، قام السيد خوان دى أوستريا بتقسيم المقاتلين -الذين كان تعدادهم تسعة آلاف من المشاة وسبعمائة فارس- إلى فريقين. أما الفريق الأول -الذى يضم خمسة آلاف راجل وأربعمائة فارس- فقد غادر غرناطة يرافقه السيد خوان، وذلك فى الساعة الثالثة من مساء يوم الثلاثاء، الموافق الثالث والعشرين من شهر ديسمبر، بغرض الالتفاف حول المكان على النحو المفروض والدخول إلى البلدة من الجهة الشرقية. عند بلدة بياس -التى تناول فيها الرجال وجبة العشاء وارتاحوا لبرهة من الوقت خلال تلك الليلة- استأنفت القوات مسيرتها. أما الفرقة الثانية -التى كانت مؤلفة من أربعة آلاف من المشاة وثلاثمائة فارس- فقد ترك السيد خوان قيادتها إلى دوق سيسا، آمرًا إياه أن يتحرك عند انتصاف الليل، لأنه سيقطع مسافة أقل فى الطريق.

رافقت السيد خوان دى أوستريا وحدات الجيش من المشاة الذين يعملون بأجر، وجزء من أهالى المدينة. حيث قاد طليعة الجيش لويس كيخادا، وكان قوامها ألفين من جنود المشاة بالإضافة إليه؛ بينما تولى السيد غارثيا مانريكى قيادة سلاح الفرسان. أما المؤخرة -التى تضمنت حامل البيرق- فقد صاحبها الأب يدرو لوبيث دى ميسا. كما ذهب المورد العام السيد فرانثيسكو دى سوليس مع سلاح المدفعية والأمتعة. تحرك دوق سيسا مع كتائب الجنود التابعة للمدينة: فانطلق السيد خوان دى مندوثا ورجاله

فى المقدمة، بينما رافق المأمور القضائى سلاح الفرسان، وبات سلاح المدفعية والأمتعة عالةً عليه، ويضاف إلى ذلك عدد من فرق المشاة التى احتلت مؤخرة الجيش. وقد تقدم الجيش بالكامل كتائب المقاتلين المتطوعين. توقف دوق سيسا لفترة طويلة خلال الطريق، حتى يتيح للسيد خوان دى أوستريا فرصة الانتهاء من الدورة التى يقوم بها؛ وحينما تراءى له أن الوقت قد حان، عبر بجوار الجسر -الذى أشرنا إليه آنفًا، والموجود عند نقطة التقاء نهر المياه البيضاء ونهر شنيل- سالكًا السلسلة الجبلية والجزء المثلث من جبل غيخار، وكان دومًا ما يحتل أعلى القمم ارتفاعًا. أمر دوق سيسا بإرسال إشارات نارية، لكى يشاهد السيد خوان دى أوستريا -الآتى من الجهة المقابلة- المكان الذى وصل إليه، ويحث الخطى من أجل أن يستطيع كلاهما الوصول فى التوقيت ذاته، عن طريق تبادل العلامات النارية.

كان الأدلاء المرافقون للسيد خوان دى أوستريا يقودون الجيش عبر طريق بالغ الوعورة، وقد قاموا بالالتفاف لمسافات بعيدة، حتى لم يعد بمقدورهم بلوغ الربوة الكائنة شرقى سيبيا قبيل ارتفاع الشمس فى كبد السماء. فى تلك الآونة كان جنود الفرق التى تقود طليعة جيش الماركيز قد بلغوا الرابية الغربية -التى ينبغى الهبوط عبرها- على نحو أسرع، حيث كان عليهم قطع مسافة أقل والسير فى طريق أفضل. وفى سرعة خاطفة، توجهوا للانقضاض على دوريات الحراسة التابعة للمسلمين والموجودة على قمة الجبل. بادر من بالداخل بالفرار لدق ناقوس الإنذار الموجود فى نقطة الحراسة المقامة داخل الخندق الصخرى -وكأنهم هم بأنفسهم من يوضح للجنود المسار الذى ينبغى أن يسلكوه لاقتحام البلدة. أخذ الجنود فى ملاحقتهم دون نظام وفى عزم ماض، حتى أنهم لم يتيحوا لهم فرصة ليتمكنوا من التصدى لهم، وفر الجميع هربًا باتجاه البلدة. عندئذ انقض رجالنا جميعًا على المكان، وساروا إلى الحصن الآخر -وكان المسلمون قد هجروه أيضًا- فاقتادوا أمامهم النساء وبعض الأمتعة المحملة بالثياب، وصعدوا بها إلى جبل شلير، الذى كان يمثل بالنسبة إليهم ملجأ يقع على مسافة قريبة للغاية، فلم يكن يفصلهم عنه سوى مياه شنيل الصافية.

حينما رأى الدوق أنه قد تم اقتحام المكان والحصن، مضى إلى الحى الأسفل ومعبر النهر، حيث كان الرماة المسلمون قد شكّلوا جبهة لكى يتيحوا الفرصة للنساء فى المضى قدمًا. هنالك قُتِلَ القائد كيخادا على إثر ضربة بالحجر تلقاها فى رأسه، علاوةً على خمسة وثلاثين جنديًا -كانوا قد انفصلوا عن الركب طمعًا فى قطع الطريق على الأمتعة والمسلمات اللواتى بادرن بالهرب. كان يمكن أن تصبح الخسائر فادحة، لو لم يكن الأتراك قد غادروا المحل فى اليوم الذى حضر فيه السيد غارثيا مانريكى، ثم تبعهم رحيل الرانداتى والبارتال والقادة الآخرين مع غالبية الرماة. لأن أولئك الرجال اللصوص -الذين لم يكونوا يبتغون شيئًا سوى السرقة، وكانوا قد جاءوا إلى هناك لملائمة الجبال لذلك الغرض- لم يودوا أن يعرضوا أنفسهم لخطر الدفاع عن المكان، واستغلوا فرصة الذهاب لتجميع المزيد من الرجال لينفذوا هجومهم خلف ظهر جيشنا إذا ما أغار على المحل.

قُتِلَ فى ذلك اليوم أربعون من المسلمين، وكان الفيء الذى غنمه جنودنا قليلاً لأنه لم يكن هناك سوى أشياء قليلة تسلب. بالإضافة إلى ذلك فقد تم الاستيلاء على كميات من الماشية والأغنام، وبعض المؤن والثياب التى كانت فى المكان. وقد عثرت أنا -فى المنزل الذى كان يقيم به القائد الشعيبى- على الكثير من الأوراق، كان من بينها الخطاب الذى كان ابن أميه قد أرسله إليه، آمرًا إياه ألا يضطلع بإثارة المزيد من القرى حتى يصدر إليه الأمر بذلك -كما أسلفنا فى موضع سابق. كان المسلمون قد رحلوا، والبلدة قد فتحت، حينما أطل السيد خوان دى أوستريا من الرابية التى كان يتعين عليه هبوطها؛ وقد أظهر أسفًا بالغًا بعد أن رأى أن الدوق لم يدع له ما يفعله. حيث تطاير الشرر من عينيه كما الجمر من فرط الحنق، ولم يدر أيلقى باللوم على الأدلاء لأنهم لم يرشدوه الطريق بشكل جيد، أم يلوم الدوق لأنه لم ينتظر إلى حين قدومه؟ بيد أن الدوق اعتذر منه، وأرضاه إلى حد بعيد، لمّا أخبره بأنه قد أرسل إليه كتابًا فى الطريق مع أحد الجنود، قال فيه إنه يبدو له أن جيشه قد تأخر كثيراً، وأنه الفرصة قد تضيع إذا ما طلع ضوء النهار واستشعر المسلمون وجودهم، وطلب أن

يشير عليه الأمير فيما يجب القيام به؛ وأنه قد أجابه بأن يفعل ما يبدو له أفضل[11].

وعلى الرغم من ذلك، فإن ما حدث لم يكن بيده، لأن جنود الفرق وثبوا على دوريات العدو على نحو مباغت، ولم يكن يسعه سوى الذهاب في أثرهم.

بعد كل ما جرى، لم يكن السيد خوان دي أوستريا راغبًا في التوقف عند ذلك الموضع، فأمر السيد خوان دي مندوثا أن يبقى في الحصن، الذي كان المسلمون قد شرعوا في إقامته في الحي الأوسط، ريثما يقرر من سيمكث به ليكون معقلاً للمسيحيين؛ ثم عاد أدراجه إلى مدينة غرناطة، دون أن يتناول أي طعام على مدار ذلك اليوم. أعقب ذلك بفترة وجيزة توجه السيد خوان دي ألاركون Juan de Alarcón -سيد بويناتشي Buenache- إلى هناك، وقد صحبته أربع فرق من القوات التابعة له وبعض الفرسان. وقد ظل هناك إلى أن قام كل من السيد لويس دي كوردوبا والقائد أورونيا باختزال الحصن في نطاق أصغر، ليبقى به السيد فرانثيسكو دي مندوثا برفقة خمسمائة من جنود المشاة.

(١١) إذا كان الأمير قد أجابه هكذا فلا ندري سببًا لغضبه. النص الأصلي هنا لا يوضح سبب غضب الأمير. (المراجع)

الفصل الثامن والعشرون

يتناول مصير الخائن فرج بن فرج.

استرعى انتباهنا أن القارئ لابد أن يكون قد شرع فى المطالبة بمعرفة ما كان فرج بن فرج بصدده فى تلك الآونة -بوصفه الرأس المدبرة لتلك الثورة- ، ظنًا منه أننا قد نسينا أمره. وحتى لا نكون قد أهملنا شأنًا قد يرغب فيه القارىء، فسوف نأتى على ذكره فى هذا الموضع، الذى لن يصبح أقل أجزاء ذلك التاريخ إمتاعًا. كنا قد عرضنا من قبل كيف أن ابن أمية -بعد أن أطلق عليه أهالى بيثنار لقب "ملك"- أراد أن يزيح عن كاهله ذلك الرجل السيئ؛ فأرسله لكى يتولى تجميع الفضة والذهب والنقود، التى كان الثوار قد استولوا عليها من مسيحيى البشرات ومن الكنائس. فقام ذلك الأخير باقتراف العديد من الفظائع، وطغى فى شتى بقاع تلك الأراضى، مستعينًا بمائتين من الثوار الجبليين كان قد أحضرهم برفقته، حتى أن ابن أمية خشى أن ينقلب وينازعه حكم المسلمين وولاية شئونهم.

حمل ابن أميه فرج بن فرج على الحضور إلى بلدة القصور، وأمره بأن يسلم كل ما جمعه من نقود وذهب وفضة إلى صهره ميغيل دى روخاس، وكان قد جعل منه خازنه -كما أسلفنا. ثم أرسل الثوار الجبليين المائتين إلى مواضع متفرقة، بحجة الاستعانة بهم والإفادة منهم، وأمر فرج ألا يبرح الريف إلا بإذنه وبمقتضى أوامره، وإلا واجه عقوبة الإعدام. فاستطاع على هذا النحو أن يستبقيه معه لفترة طويلة، إلى أن ألحق ماركيز مونديخار الهزيمة بجيش المسلمين، وشرع فى إخضاع الأراضى. عندئذ ألفى الخائن الأكبر نفسه مكروهًا بشدة من قبل المسلمين والمسيحيين،

نتيجةً لما اقترفه في حق هؤلاء وأولئك من أفعال وحشية في الأرض؛ فانزوى في بلدة غيخار، وظل مختبئًا هناك حتى أعاد ابن أمية تشكيل قواته، مستغلاً الاضطرابات التي سادت بين صفوفنا، وعاود نشر الثورة في القرى.

أدرك فرج بن فرج أنه إذا ما رجع إلى ابن أمية فلن يناله خير، وإذا ما اتجه إلى المسيحيين فستضحى العاقبة أسوأ، فلم يدر إلى أيهما يلجأ؛ حتى قرر أن يحل تلك المعضلة بتسليم نفسه إلى محاكم التفتيش المقدسة، وطلب العفو عما ارتكبه من خطايا، معتقداً أنهم لن يقتلوه هناك، بل سينزلون به عقوبة بدنية. أسر فرج بما ينتوى القيام به إلى أحد المسيحيين الأشرار[١٢] -كان يعمل صبّاغًا، ويسير برفقته-، حيث قال له الكلمات التالية: "يا أخي، نحن نجوب الأراضي بعد أن مقتنا الناس. أما قضيتنا فلم تسر على النحو الذي حسبناه، لأن المسلمين -الصابرين على البلاء بصعوبة- لم يعرفوا كيف يحكمون البلاد؛ فقد حقروا من شأننا، ووضع ابن أمية سكينه على رقابنا. وإذا ما اعتقلنا المسيحيون، أو ذهبنا نحن إليهم، فلن يكون مصيرنا سوى حبل المشنقة. ليس أمامنا سوى سبيل واحد، إذا ما أردنا البقاء على قيد تلك الحياة البائسة لبضعة أيام، ألا وهو الذهاب لوضع أنفسنا بين يدي محاكم التفتيش؛ لأنها إن طبقت علينا عقوبةً ما للتكفير عما اقترفناه من خطايا، فإنها لن تقتلنا. الجميع يعرفونني جيداً في غرناطة؛ وبمجرد سعيي إلى دخول المدينة، فلا يمكن أن يقوموا بأقل من اعتقالي أو قتلي، وسوف يخضعونك إلى المصير ذاته إذا ما دخلت برفقتي. وأنا أرى أن تذهب أنت أولاً وحدك، لكي نتخطى ذلك العائق، وأن تمثل أمام قضاة المحكمة، وأن تطلب منهم -نيابةً عني- أن يأمروا بقدوم فرد أو اثنين من أقاربي، حتى يتسنى لي الحضور في أمان".

استحسن رفيق فرج ذلك الحديث، واتفقا على أن يغادر الرجل المغارة -التي كانا مختبئين فيها- عند انتصاف الليل لكي يتوجه إلى غرناطة. لكن بحلول ذلك الوقت كان فرج قد نام؛ فما كان من الرفيق إلا أن قرر أن يجهز عليه، حتى يتخلص منه ومن شروره،

---

(١٢) هل يقصد أنه كان موريسكيًا؟ (المراجع)

لحنقه عليه بسبب اصطحابه معه طوال تلك الفترة، ولعله كان يظن أنه بموته سوف ينال العفو بسهولة أكبر. فرفع حجراً ضخماً وجده بالقرب منه، وانهال به ضرباً على رأسه مرات عديدة، حتى هشم أسنانه وضروسه وفكه، وكسر أنفه وفمه وعينيه ووجهه بأكمله. وظناً منه أنه قد قتله، توجه مباشرةً إلى غرناطة، ولم يتوقف حتى بلغ مسكن رئيس الأساقفة؛ فقال لأحد الوصفاء أن يدخل إلى نيافته، ويخبره بوجود جندى يود أن يطلعه على أمر ما يتسم بالأهمية على هيئة اعتراف؛ فاستمع إليه رئيس الأساقفة، وبعث به إلى قضاة محكمة التفتيش، حيث سندعه ما بين أيديهم.

لنعد إلى الحديث عن ابن فرج، الذى ظل فاقداً للوعى فى المغارة على مدار يوم واحد وليلتين- كما لو كان ميتاً-، حتى وصل إلى هناك على سبيل الصدفة بعض مسلمى غيخار. وحينما شاهدوا ذلك الرجل المسجى على الأرض وقد تورم رأسه ووجهه، وامتلأت جراحه بالديدان، دنوا منه لكى يعرفوا إذا ما كان مسلماً أم مسيحياً؛ فلمّا ألفوه مختتناً وما زال على قيد الحياة، حملوه إلى بلدتهم دون أن يتسنى لهم التعرف عليه. وبعد أن برأ والتأمت جراحه، بات مشوهاً كما المسخ، فلم يعد يشبه بنى البشر؛ وحينما كان يتعين عليه تناول الطعام أو الشراب، كان لزاماً أن يلقى إليه الماء والزاد من خلال أنبوب، عبر ثقب صغير بقى لديه فى موضع الفم. عندما فتح السيد خوان دى أوستريا غيخار -على النحو الذى ذكرناه فى الفصل السابق-، كان فرج هناك، وهرب مع المسلمين الآخرين، وفيما بعد ظل يجوب فى أنحاء البشرات يطلب الصدقة. فلمّا استسلمت كافة الأراضى، سلّم نفسه مع مسلمى وادى ليكرين، وتم إيداعه معهم فى المناطق الداخلية. لا يمكننا أن نعلم ماذا حل به أو ما آل إليه مصيره، لكننا سنسعى باجتهاد شديد لمعرفة ذلك الأمر من خلال من ذهبوا برفقته(١٣).

---

(١٣) واضح من هذه الفقرة أنها كُتبت فى أثناء الحرب، حيث كانت الأحداث متلاحقة ولم يكن المؤلف قد علم بعد بمصير فرج. (المراجع)